2271
255
392
1938

2271.255.392.1938
al-Ḥakīm
Taḥta shams al-fikr

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
JAN 14	FEB 11 '69		
MAY [illegible] 2005		MAR 30 2005	

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL>
32101 038157341

توفيق الحكيم

تحت شمس الفكر

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٨

al-Hakim, Tawfiq

توفيق الحكيم

خالد الزعيم واولاده ـ حلب
KHALED EL-ZAIM & FILS
ALEP (Syrie)

تحت شمس الفكر

Tahta shams al-fikr

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٨

2271
.255
.392
.1938

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت

محمد: (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ومطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهرزاد: (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤ وترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية)

أهل الكهف: (مطبعة مصر ومطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)

عودة الروح (فى جزئين): (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣. وترجم ونشر بالروسية فى لينجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧)

أهل الفن: (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

مسرحيات توفيق الحكيم: المجلد الأول: سر المنتحرة، نهر الجنون، رصاصة فى القلب، جنسنا اللطيف. (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)

عهد الشيطان: (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

10-3-66
1945

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التى نشرت

مسرحيات توفيق الحكيم — المجلد الثانى : الخروج من الجنة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة تحطمت . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

يوميات نائب فى الأرياف — (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

عصفور من الشرق — (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

تحت شمس الفكر — (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

تاريخ حياة معدة — (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

تحت شمس الفكر

عرفت النور

ورأيت الجمال

ولكنى .. احترقت !

فى الدين

منطقة الايمان

حينما كنت وكيلاً للنائب العام كنت أرى عجباً في قاعات المحاكم وجلسات التحقيق ؛ وكنت أفكر كثيراً في أمر ذلك الشرير الذى طالعت صحيفة حياته فإذا آثام ودماء تسيل منها ، ومع ذلك يقف أمامى متطلعاً إلى السماء ، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذباً . هذا الآدمى قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شيء ، لكن بقيت برغم هذا فى نفسه منطقة عذراء لم يتطرق إليها فساد : منطقة العقيدة ! أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والغريزة ؟ كذلك كان يدهشنى أمر صديق من خيرة القضاة ، كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ؛ ومع ذلك بقى عقله حراً من كل قيد . ما يدور بيننا حديث فى الخالق والخليقة حتى يذهب هو فى

التدليل والمنطق كل مذهب إلى أن يقع فى الإلحاد وإنكار الجنة والنار . وينادى المؤذن بالصلاة فإذا القاضى يسرع مخلصاً إلى ذلك الدين الذى قال فيه منذ لحظة قولاً عظيماً . أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى ، فإن هذا القول يؤدى حتما إلى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا إلى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ؛ فما يصدق عند القلب ، قد لا يصدق عند العقل . بل إن كل ملكة من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى . يقابل ذلك فى المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس ، فعالم البصر منفصل

عن عالم السمع ، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية ، وما يعتبر موجوداً فى منطقة العين لا يعتبر موجوداً فى منطقة الأذن ، فهذا الحجر الساكن حقيقةٌ تراها العين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة ، ولن تعرف مطلقاً ما هو الحجر وما شكله ، لأن عالمها وهو عالم الأصوات لا يخطر له على بال أن فى الوجود عالماً يسمى عالم المرئيات . فالعقل لا يدرك إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه . والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة ، وليست الحقيقة كلها . ولكنها الحقيقة التى يستطيع العقل أن يراها من زاويته . فإذا كانت العقيدة مرجعها القلب ، فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذى يستطيع أن يراه ، ويظل محجوباً عنه الشطر الواقع فى دائرة القلب . فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف لا شك فيه عند القلب ؛ أما العقل

فإن استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق ، فإنه قد يرتاب فى صحة تلك الصفات المنسوبة إليه ، وقد يراها فى منطقه صفات آدمية أسبغها البشر على خالقهم إجلالاً له ، لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التى هى فى عرفهم مرادف الإكبار والتقدير . أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ هل تستطيع الكبد فى جسم الإنسان مثلاً أن تحيط إدراكا بحقيقة شكل الإنسان الخارجى وهى جزء منه داخل فيه ؟ إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التى تمر بها كل يوم فتحولها إلى إفرازات دون أن تدرى من أين جاءت ، ولا إلى أين تذهب . العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدرى من أين جاءت ولا إلى أين تذهب . فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التى تمر

بالحواس ؛ ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل ، كمن يطلب الى الكبد مضغ الطعام . فالحقيقة العقلية أو العلمية شىء ، والحقيقة الاحساسية أو الدينية شىء آخر ؛ وإن رجال الدين يقعون دائماً فى الخطأ ، إذ يبسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولاً يتفق مع الدين ، ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين . وما أحراهم فى كلتا الحالين أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين ، وأن يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم فى كلا الحالين كاذب عندهم وإن صدق ، وأن لا شأن للعلم بهم ، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه ، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله ، وأن أولئك الملحدين الذين سخروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك

فى جوهره ووجوده ، لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود الاسمى الذى بيده نفوسهم . إن عقولهم كانت ترغى وتزبد بالكلام المعقول والمنقول ، وقلوبهم فى معزل عن كل هذا الصخب ، لا تشعر ولا تدرى شيئاً عن المعركة الحامية القائمة فى تلك الرؤوس . فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث . على أن اجتهاد المجتهدين فى هـذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعى المبنى على الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة ...

وهنا يتساءل الناس دائماً : ما الدين ؟ أهو شىء مفيد للبشر فى أمر حياتهم ومعاشهم ؟ أم إنه طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول ؟ . فى الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين

الوجهين . فالدين كقانون اجتماعى ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، هو أمر متعلق بذات الانسان ، متصل إذن بعقله وعلمه . على أن عنصر « الأخلاق » فى الأديان ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد استطاعت أن تجد فى « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان » ؛ إنما قوة الدين وحقيقته فى العقيدة والايمان « بالذات الأزلية » . هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الانسانى ، بل يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الاحاطة ، والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود . فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل . ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . إنى ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم فى الدين عن طريق

العقل ، فان الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ؛ ولا بد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر الطليق ، كما لا بد لحياة ملكة القلب من الشعور الحار العميق . فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التى هى كل بهرجهم الأدمى الأجوف ، فان كل هذا الضجيج العقلى لن يصل خبره إلى القلب الذى لا يفتر لحظة عن التسبيح رغماً عنهم بالعقيدة التى ركبت عليها حياته النابضة ...

الدفاع عن الاسلام

—

قرأت لثلاث عشرة سنة خلت قصة ڤولتير التمثيلية « محمد » ، فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر . فقد سب فيها النبي العربي سبا قبيحاً عجبت له . وما أدركت له علة ، لكن عجبي لم يطل ، فقد رأيته يهديها إلى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات :

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة ، إذ تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية . وإلى مَن غير وكيل رب السلام والحقيقة ، أستطيع أن أتوجه بنقدى قسوة نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لى قداستك فى أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ؛ وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة . وإنى مع الإجلال العميق أجثو

وأقبل قدميك القدسيتين » (ڤولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥) .

وعلمت فى ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال ڤولتير التمثيلية ، فاطلعت على ما قال فى قصة « محمد » على أجد ما يرد الحق إلى نصابه ، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن محمد ما أُلصق به كذباً ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل فى هذا النبى لا غبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هى أدب وفن .

ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على ڤولتير ، فألفيته ردا رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين ، وكله حديث فى الأدب . فعظم عجبى لأمر ڤولتير ، وسألت نفسى طويلاً : أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول . دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال ، هو فى نظره حقا دين كاذب ؟ ومبادئ إنسانية كالتى جاء بها الإسلام ، هى عنده حقا

مبادئ بربرية ؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق . وإن الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر ...

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شىء عزيز لدى : الإيمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحياناً ألتمس الأعذار لڤولتير ، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً إلى علم خاطئ بأخبار النبى ، ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمه اتهاما صارخا ، ويدع مجالا للشك فى دخيلة أمره . إنى قرأت لڤولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقا فى مسائل الأديان ، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم ، فما باله عندما عرض لذكر محمد والإسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه ، تعصبٌ لدينه ، ذهب فيه إلى حد

السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ما أرى أن ڤولتير كان فى ذات يوم من خدامها المخلصين . هى الأطماع التى كانت تدفع ڤولتير فيما أرى إلى التمسح بأعتاب الملوك والبابوات ، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً . منذ ذلك الحين وڤولتير عندى متهم ، ولن أبرئه أبداً ، ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر . وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم . على أن الذى يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والإسلام وقفا من الأمر موقف النائم الذى لا يعى ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتباً من كتاب الإسلام قام فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذى قال ڤولتير ، ويقذف فى وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفاً وضع

كتاباً يبرز فيه شخصية النبى العظيمة واضحة جلية . لقد كان الشرق فى ليل هادئ بهيم لم تثر فيه حركة ڤولتير يومئذ ساكناً ، ولكن اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت فى أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام فى هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن فى ذلك تمجيداً للحق وللشرق ، فإن المسألة ليست مسألة دين فقط ، إنما هى أيضاً مسألة جنس وقومية ؛ وإذ تقول أوربا : « الإسلام » فإنما تعنى فى غالب الأحيان « الشرق » ، والدفاع عن الإسلام لم يكن فى كل الأحيان دفاعا عن عقيدة وديانة إنما هو دفاع عن حياة تلك الكتلة التى يسميها الغربيون : « الشرق » . إن الحروب الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ؛ وإن الفتح الإسلامى عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن فى الواقع إلا حرب الشرق على الغرب . هذا المد والجزر بين الغرب والشرق

يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لابد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به . فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التى تُوجه لهذا الغرض النبيل ينبغى أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد ؛ وإنى لست بناقد منقطع للنظر فى أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولكنى أريد أن أشير إشارة سريعة إلى صوت من الشرق ارتفع فى العصر الحديث محتجا مدافعاً هو صوت الأستاذ الإمام محمد عبده ، فى رده على « هانوتو » . فلقد نشر جابريل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسى يوماً مقالة جاء فيها :

« قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية .

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لاتجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا ، بل أقرب فى الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ، ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذى إليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع إلى أفريقية حيث ثبت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة » ثم قال فى موضع آخر : « وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والإسلامى ، فرأى فى الإسلام العدو الألد والخصم الأشد . قال المسيو كيمون فى كتابه « باتولوجيا الإسلام » : إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً ، بل هى مرض

مريع وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويذمن على معاقرة الخمور ، ويجمح فى القبائح . وما قبر محمد فى مكة إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستريا (الصرع) العامة والذهول العقلى ، وتكرار لفظة الله إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، والجنون الروحانى ، والليمانيا ، والماليخوليا ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات » الخ الخ .

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع ، كما يقول المسيو كيمون : « وأن الواجب إبادة خمسهم » كما يقول أيضاً « والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير

الكعبة ، ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر » وهذا أيضاً قوله : « . . وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى . . أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً (١) ، وأن من الجائز أن يهيب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم » الخ الخ .

ما كاد يظهر هذا الكلام فى صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلمه وكتب نحو أربع مقالات هى أقوى ما قرأت دفاعا عن الإسلام ، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوربيين . وقد رد على هانوتو فيما أوردنا صائحا :

« ما هذا التمدين الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون ؟ ؟ هل كانت تلك

(١) عدد المسلمين الحقيق فى العالم اليوم يبلغ نحو ٤٠٠ مليون .

المدنية هى التسافك فى الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ، نعم هذا هو الذى كان معروفاً عند الغربيين وقت ماظهر الإسلام !

« ماذا حمل الإسلام إلى أوربا ، وما هى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون .

« إنى أكيل لمسيو هانوتو إجمالاً بإجمال ، والتفصيل لا يجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به .

« إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ماجاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا مانبت فى أرضهم ، بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة » .

ثم رد الإمام فى موضع آخر : « يجب على الباحث فى الإسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره والإسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون ، ولو استشم مسيو (كيمون) الذى استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه .

« من أين أُتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه ، وفى عوائدهم بالتمويه ؟ وممن تعلموا الافتراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ، والله من ورائهم محيط .

« اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم .

« حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائد ، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون) .

« أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه فى تنزيله على لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ،

واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شرا عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

« يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ؛ وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهرا ضغنهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

« أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الإنكليز مثل (اسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة : « إنه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والإقدام من أنصاره » .

* * *

نعم ، لقد آن للغرب أن يحترم عقائد الشرق . بل قد آن للغرب أن يدرك أن محمداً والإسلام هما منبع من منابع الفكر الحر وطفرة من طفرات البشرية المتحررة . والدليل على ذلك شخصية النبى ذاتها وغرضه فى الدعوة إلى دين جوهره اقتناع النفس بالحقيقة العليا . فمحمد هو أول نبى مجد البشرية بأن أعلن أنه بشر ، وأن دينه هو دين الفطرة البشرية ، وقاوم أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات فأثموا فى حق الفكر البشرى قبل أن يأثموا فى حق الدين .

فالمعجزة أى الإتيان بعمل خارق للمعتاد لا تدل على شىء ولا تثبت نبوة ولا تدحضها . فإن من الكهان أو بسطاء الناس من يملكون أحياناً تلك القوى الخارقة فى أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء . إن النبى ليس فى حاجة إلى معجزة

كى يكون نبيا . إنما النبى من حُمّل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة حتى يؤديها ، ومن فضل محمد أنه لم يشأ أن يقنع الناس بغير ذلك ، فقد بلغهم رسالته واعتمد فى إثباتها على الملكات البشرية المجردة المتحررة .

فلقد جاء فى كتب السيرة أن المسلمين عطشوا أثناء مسيرهم إلى غزوة تبوك فأمطرتهم السماء فقال بعضهم إنها معجزة ، فصاح محمد من فوره : (إنما هى سحابة مارة) وأن الشمس كسفت يوم مات ابنه ابراهيم فقال الناس : (إن هذا الكسوف معجزة) فصاح محمد : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » . هذا كلام محمد الذى قال الغرب إنه نبى كاذب !!! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبى كاذب ؟ ؟

إن محمداً قد فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا وأدرك أن أكبر معجزة فى هذا الكون هى أنه لا يوجد

فى الكون معجزات ، وأن كل شىء يسير طبقاً لنظام دقيق . وإذا قيل نظام قيل قانون ، وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر ، وهذا العقل واحد أحد تبدو سمته فى إدارة الأجسام غير المحدودة فى العظم ، كما تبدو فى إدارة الأجسام غير المحدودة فى الصغر ، ذات اليد العلوية وعين أثرها فى كل شىء ، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير . إن محمداً قد تأمل الطبيعة كثيراً أيام عزلته الطويلة فى غار حراء ، وفكر ملياً فى نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره فامتلأ قلبه بالله الواحد ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء دينه ديناً كاملا ، صادقا فى نظر القلب والعقل معاً . ولئن كان على الأرض نبى حرص على أن يجاهر بمحبة العلم ومصادقته ، ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، فهو « محمد » الذى قال : « فضل العلم خير من فضل العبادة » « اطلب

العلم ولو فى الصين » وكثيراً من الأحاديث التى تثنى على العلم وتحض عليه . ذلك أن مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد : الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن عقل مبدع هائل .

فى كتاب حديث للعالم انشتين فصل ذكر فيه رأيه فى الدين ، فقال إنه يعتنق ما يسميه « الديانة الكونية » تلك الديانة التى تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل « ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه إنه لا شىء » .

لا ريب عندى أن إحساس انشتين نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث فى غار حراء قبل نزول الوحى . إنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبى أن يكون نبيا إلا أن

يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقاً إلى معرفة سرها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى إليه بنشر هذا النور على الإنسانية . إنى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت إيمانى بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها فى الحقيقة وجود ، وإن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق ... بل إن الدين والعلم شىء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق . ولم يظهر نبى حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . إنما الفارق بين العلم والدين هو فى السبل التى يسلكها كل فى الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغى أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟ ؟ ؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة

لا يختلط بعضها ببعض ، إنما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدى إلى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية : ألله ...

نجم أحمـــد !

—

وقف اليهودى على أحد آطام يثرب ناظرا إلى السماء يعلن إلى بنى قومه ميلاد النبي فى صيحة مدوية : « طلع الليلة نجم أحمد ! »

عجبا من العجب ! أحقاً لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبـل تلك الليلة ؟ يخيل إلىّ أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان . إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة يشع نوراً من بداية الكون لو أن للكون بداية ، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية ! نجم أحمد هو الحق . والحق لا يبدأ ولا ينتهى . ولا يظهر ولا يختفى . إنه موجود .

إذن ما الإسلام ؟ وكيف ظهر الإسلام بظهور محمد والمسيحية بظهور المسيح ؛ واليهودية بظهور موسى ؟

هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق . بين المعنى والأسلوب . ما الإسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته . كذلك المسيحية وكذلك اليهودية . وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتحد فى الجوهر وتختلف فى المظهر : وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب ؛ وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ، إذ جاء بأسلوب جامع مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب . فالمفاضلة لا تكون فى الجوهر ، لأنه واحد أحد ؛ إنما المفاضلة فى الأثواب .

وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الأثواب وهى كلها من صنع الخالق المعصوم الذى لا ينبغى أن يخطىء ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله ، أما الأسلوب الذى يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل

والأنبياء ؟ قبل الإجابة على هذا السؤال يجب النظر فى قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذى ركب عليه النبي أو الرسول أثر فى أسلوب رسالته ؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذى يدعو إليه ؟ وهل لظروف العيش التى نشأ عليها النبي دخل فى اتخاذ « القالب » الذى أفرغ فيه « موضوع » النبوة ؟ إن أُجب على كل هذا بالإيجاب فإن التبعة فى « أسلوب » الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء . والنبي إذن مسئول عن الطريق الذى اتبعه للإبانة عن « الحق » مسئولية ملقاة على « شخصيته » التى صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ؛ وعلى قدر « الشخصية » ذات الوجود الفعلى تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فإنى أستطيع القول إن النبي

أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته . بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته . كذلك فعل النبي العربى ، وكذلك فعل المسيح وموسى . وكذلك كل نبي لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . وهى ملكات تختلف باختلاف الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التى جرت عليها الأديان فى عرض جوهر الحق على الناس . ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس فى كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التى يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذى قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله ، وأنه فى كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحى يهديه السبيل ، يتصرف كما يتصرف البشر . هكذا فعل فى معارك بدر وأحد والخندق إذ كان

يستمع إلى مشورة أصحاب الرأى من رجاله . وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل أنه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التى ركبها الخالق فى البشر . والنبي الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً ، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان فهو دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة . كل شئ فيه صادق خالص صاف . ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوى على البشر من حيث تركيبهم المادى والمعنوى . ذلك أن أسلوب محمد فى إدراك «الحق» كان أسلوباً مستقيما . فهو قد أدرك أن «معنى» الحق إنما هو «السبب» الذى يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو «النظام» إذ لا يتصور أن تكون

«الفوضى» من عناصر الخليقة . بل إن «الفوضى» إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود بلا نظام ؛ بل إن كلمة «الفوضى» لا محل لها إلا فى أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئا من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهى فلا يعرف غير النظام ، هذا النظام الذى فرض على الإنسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعى للانسان والأشياء مخالفة لله ؛ وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب الإسلام فى الإفصاح عن «الحق» واضحاً جلياً ؛ لا يأمر بالرهبنة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله . لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه .

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقا لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الإكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية .

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة فى كل شئ . فهو ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً ، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية

التى لا تصدم تقدما ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء . وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول : فإن الدين « المثالى » هو الدين البسيط . وهل أبسط من الإسلام شريعة وهى لا تعرف « رجال دين » ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ، ومن « الدين » مهنة تدر الرزق وتعطى متاع « الدنيا » ؟ إن أولئك الذين يجعلون « الدين » سلماً « للدنيا » لا « الدنيا » سلماً « للدين » قد طردهم الإسلام بعيداً عن حظيرته ، وجعل الدين سمحاً باسماً باسطاً ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار . نعم ، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوى الصافى من المبادىء البسيطة المستقيمة التى لا خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل فى قوانين

الطبيعة الأساسية التى وضعها المبدع الأعظم . إذا تم ذلك للإسلام فى هذا العصر فلسوف يأتى يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون من كل جنس ولون على آطام بلادهم يصيحون فى كل حول صيحة ذلك اليهودى :

« لقد طلع نجم أحمد ! » .

سر العظمة

ينبغى لمن أراد أن يدرك سر عظمة « محمد » أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم فى جانب ، وإذا هو بمفرده فى جانب . هو وحده الذى يدين بدين جديد ، بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته ، وبلده وأمته ، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود . هذا موقف النبى ، وهذا موقف العالم : رجل عاطل من كل قوة وسلاح ، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان ، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة ، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه ، واتخذت لها فى قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم . فالنبى

هو ذلك القادم الذى يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً . والعالم القديم هو ذلك السادن القوى لتلك الشجرة العتيدة ، يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط فى ورقة منها . إنها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل ، وبين عصر بأسره يزمجر غضباً : عصر زاخر بأسلحته ورجاله ، وعقائده وفقهائه وعلمائه ومشاهيره ، وتقاليده وماضيه ، ومجده وتاريخه ... هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبى ... على أن المعجزة بعد ذلك ليست فى مجرد التحدى ورمى « القفاز » وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامى العجاج : « أن أترك أيها العالم دينك القديم واتبعنى » . ذلك الصوت الذى لاجواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة ... وليست المعجزة كذلك فى مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، إنما المعجزة حقيقة هى

أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافراً منتصراً ؛ فإذا هذا العالم العتيد كله يحثو عند قدميه منكس الأسلحة ، وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلا ، وقهقهته صلاة عميقة . كيف ربح هذا الرجل الموقعة ؟ ما وسائله ؟ هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر ؟ أو أن الله هو الذى نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل فى الانتصار ؟ عقيدتى دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير .

وهنا معنى الاصطفاء ، فالله يختار من بين البشر عظيما له كاهل يحتمل عبء الرسالة ، ويوحى إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد فى سبيلها . فالنبي ليس آلة تحركها يد الله فى كل خطوة ؛ إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التى يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية . فالله لا يريد نشر الأديان بين البشر

إلا بالوسائل البشرية . فهو لا يتدخل بقدرته العلوية فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزوابع والأمطار ؛ ولكنه يحب دائماً أن يخلى بين « الدين » وبين « الناس » حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه فى نفوسهم بجمال نوره وحده ؛ ولكن أعين الناس لا ترى فى كل الأحيان ؛ فهم يعيشون فى أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء فى أغوار المحيطات . هنا تبدأ متاعب النبى ؛ وهنا تظهر المعجزة الحقيقية وهى إبراء الأعمى ، لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان . فهو الذى يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده : نور الدين الجديد الذى أتى به . وهنا ينبغى التساؤل : كيف استطاع النبى أن يُرى الناس ما يَرى ، وأن يقنعهم بما جاء به ؟ الجواب بسيط : حياة النبى وخلقه . إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده . إنما يؤثر فيهم الفعل والمثل . إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً

لا يسعى إلى غنى ولا إلى مُلك ، وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويجوع أياماً ، وأن كل تلك المخاطر التى يتعرض لها فى كل خطوة ، وأن كل ذلك الهوان الذى يناله من سفهاء القوم وأكابرهم ... وأن كل ذلك الجهاد الذى ملأ به حياته بأكملها إنما هو فى سبيل « العقيدة » التى يقول لهم عنها ؛ منذ ذلك اليوم الذى اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكا على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً : « أن يؤمنوا معه بفكرته » ؛ عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعاً أن الأمر جد لا هزل ؛ وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال ؛ وأن الآدمى الذى لا يغريه فى الحياة شىء ، ولا يعيش إلا من أجل فكرة ، لا بد أن يكون قد أبصر فى الفكرة جمالا لم يبصروه هم .

« فكرة » لا تقوّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحى فى سبيله خير ما فى الحياة . أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون مليا وثبت لمن كان قد ارتاب فى أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقا يعمل لمغنم إنما هو رجل صادق مخلص ، لا مطمع له من تلك المطامع التى يسعى إليها الناس فى هذه الدار . عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه . . فوسيلة النبى الأولى وخطوته التى نزل بها الميدان هى إقناع هذا الخصم الصاخب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية . وهنا كانت قوته ؟ فإن أمضى سلاح فى يد رجل يريد أن يقارع البشر ، هو أن يواجه البشر بيد خالية من أغراض البشر !

ولكن هذا لا يكفى . فالناس قد تقتنع بأمانة النبى

وقد تستمع إلى ما يقول ، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ فى يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذى الماء الكثيف ، يدفع إلى سطحه كل جسم غريب ، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شىء ذو وزن ، بعد زمن وجهد . وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها . فما أدراهم أن هذا الكلام الجميل الذى جاء به هذا النبى ذو الحديث الطلى ليس إلا بضاعة زائفة ووهما خلابا لعب بلب هذا الرجل ؟ ولم لا يكون هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس ؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ ، أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسه . لقد وضعت المسألة إذن وضعاً آخر ، واتخذت الحرب ميدانا جديداً . ماذا يصنع النبى ؟ لا بد له من أن يبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان حتى يصل إليها

نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والمثابرة ، فإن العاقبة فى الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه لخصما جديدا ، هو الشك الذى يقوم الآن فى رؤوس الناس . فإن كان حقيقة رجلا عظيما فليقتل هذا الشك بمفرده . وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية . ولقد جاهد الرسول فعلا فى كل لحظة من لحظات حياته ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التى فى قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً . وهنا كان النصر الأخير ، وتمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم فى قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمه ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد .

فى الأدب والفن والثقافة

الخلق

—

... لاريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض التغيير ، كيف تغيرت ؟ هذا هو موضوع الكلام ، إن شئون الفكر فى مصر حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت قاصرة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير العربى وتقليده ، كنا فى شبه إغماء ، لا شعور لنا بالذات . لا نرى أنفسنا ولكن نرى العرب الغابرين ، لا نحس بوجودنا ، ولكن نحس بوجودهم هم ، لم تكن كلمة « أنا » معروفة للعقل المصرى . لم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد . حتى جاء الجيل الجديد فإذا هو أمام روح جديد وأمام عمل جديد ، لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربى القديم فى روحه وشكله وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما السلف ، وبدت الذاتية

المصرية واضحة لا فى روح الكتابة وحدها بل فى الأسلوب واللغة أيضاً . لقد بدأنا نعى ونحس وجودنا وأول مظاهر الوعى شخصية الأسلوب واستقلال طريقة التعبير وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة ، كل هذا أصبح اليوم جليا معروفاً ، ولم أكتب هذه الصفحات من أجله ، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكرى أمر لا نزاع اليوم فيه ، ولقد مضى الكلام فى هذا ، إنما الأمر الذى يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر المصرى . معرفة أنفسنا : حتى تتبين لجيلنا مهمته . لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل ، وما فهمنا بعد جيداً مميزات النفس والروح ، ماهى مميزات العقلية المصرية فى الماضى والحاضر والمستقبل ؟ ما روح مصر ؟ ما مصر ؟ إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحاً خاصة تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح

الأخرى الغالبة ، وأن أول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الآخر ، حتى إذا ما تم تميز الروحين إحداهما من الأخرى كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما ، وكان لنا أن نقول للناس : « ها نحن أولاء قد أنرنا لكم الطريق إلى أنفسكم فسيروا » . لا بد لنا إذن أن نعرف ما المصرى وما العربى ؟ هذا السؤال ألقيته على نفسى منذ سنوات عديدة إذ كنت أطيل النظر فى الفنين المصرى والأغريقى ؟ وأذكر أنى أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين ، وأذكر أنى لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد فى فن النحت سائلا : ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد وعند الأغريق عارية الأجساد ؟ هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، نعم كل شىء مستتر خفى عند المصريين ، عار جلى عند الأغريق ، كل شىء فى مصر خفى كالروح

وكل شيء عند الأغريق عار كالمادة . كل شيء عند المصريين مستتر كالنفس ، وكل شيء عند الأغريق جلى كالمنطق ، فى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة والعقل . نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعم هذا الكلام . إن المثّال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هى شكل ظاهر ، إنما تعنيه الفكرة ، إنه يستنطق الحجر كلاماً وأفكاراً وعقائد . على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلى ، يشعر بالقوانين المستترة التى تسيطر على الأشكال ، يشعر بالهندسة غير المنظورة التى تربط كل شيء بكل شيء ، يشعر بالكل فى الجزء ، وبالجزء فى الكل ، وتلك أولى علامات الوعى فى الخلق والبناء ؛ هذا كله يحسه الفنان المصرى لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة لتحيط بقوانينها المستترة ؛ فنان عجيب لا يصرفه الجمال

الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن . إنه يريد أن يصور روح الأشكال لا أجسامها ، وما روح الشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه ؛ إن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشيء يبلغ حد المرض ، مرض إلهى ، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها : فرط البحث عن القانون !

كل شيء فى مصر إلهى ، لأن مصر التى منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهوله العيش وكفتها مشقة الجهاد فى سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ماوراء المادة ... حظها فى هذا حظ الهند : أمة كثيرة الخير كذلك دانية القطوف لاحاجة بها إلى الكفاح ولاعمل لها إلا استمراء ترف الحكمة العليا ، انقطعت هى أيضاً من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة .

مصر والهند حضارتان قامتا على الروح لأنهما قد شبعتا من المادة ، الأغريق على النقيض ، أمة لم تشبع من

المادة ، أمة نشأت فى العسر والفاقة . أرضها لا تدر من الخير إلا قليلا ، كان لزاما عليها الكفاح فى سبيل العيش وكان حتما عليها الجرى وراء المادة ، حرب تلو حرب ، وفتح بعد فتح ، وضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، على هذا النحو لم يكن للأغريق ذلك الضمير المطمئن ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الإيمان بالأرض الذى يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة ، إن عاطفة الاستقرار والإيمان عند المصريين ممزوجة بالدم ، لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق ، واختلاف العلماء فى أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفى كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجدا فى مصر قبل التاريخ المعروف ولقد ظهرت الحضارة المصرية فى التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة ، كما يظهر قرص الشمس فى الأفق عند الشروق .

ولقد قال سولون : إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التى ابتلعها المحيط قبل مبدأ التاريخ : « قارة الأتلانتيد » أترى كانت الحضارة المصرية استمراراً لتلك المدنية المندثرة ؟ . . . لم يقم دليل . على كل فرض ، مصر أمة مستقرة مؤمنة ، زهدها عمرها الطويل وخيرها الكثير فى مباذل الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصرى ، ولا شىء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها . فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصرى الصرامة والجد والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة « الصرامة » نعتا من نعوت هذا الفن ، ولا أفتح كتابا فى الفن الأغريقى إلا وجدت كلمة « الحياة » وكلمة « الإنسانية » من نعوت هذا الفن ، نعم . الحياة هى كل

شيء عند الأغريق ، قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح . فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة ، فلسفة الحركة ، لا فلسفة السكون . عند مصر والهند السكون وعند الأغريق الحركة ، قرأت حديثا « المقبرة البحرية » لـ « پول فاليرى » وهو المتصل اتصالا مباشراً بالفلسفة اليونانية . فإذا هو يشير فى قصيده إلى الحركة والسكون وإذا الحركة عنده من خصائص الكينونة الواعية الفانية والسكون من خصائص العدم الخالد غير الواعى ، وهو يعارض زينون الأليانى فى انكاره للحركة ، ويتغنى فى آخر القصيده بانتصار الحركة أى الحياة على قصرها وفنائها ، فهو فى ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة . ولم يفهم فى رأيى روح مصر والهند ، ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعى ، فإن دون هذا الإشراف

والاتصال التجرد التام من كل عقل آدمى أو منطق بشرى ، هذه هى الصعوبة فى فهم مصر والهند ، وهذا ما جعل الفن المصرى سراً مغلقا حتى أوائل هذا القرن ، وماصرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها ؛ فهى واضحة المعنى يسيرة المنال . لأنها لزمت شاطئ الحياة .

حظ الأغريق فى كل هذا حظ العرب . العرب أيضاً أمة نشأت فى فقر لم تعرفه أمة غيرها ؛ صحراء قفراء قليل من الماء يثير الحرب والدماء ، جهاد وكفاح لا ينقطعان فى سبيل العيش والحياة ، أمة لاقت الحرمان وجها لوجه ، وما عرفت طيب الثمار وجرى الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا فى السير والأخبار ؛ كان حتما عليها ألا تحس المثل الأعلى فى غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجارى ، وألوان النعيم واللذائذ التى لا تنضب ولا تنتهى ، أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة

ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع ؛ كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحس والمادة ، لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافا ، لأن كل شىء عند العرب سرعة ونهب واختطاف . عند الأغريق الحركة ، أى الحياة ، وعند العرب السرعة ، أى اللذة . لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها اختطافا ركضاً على ظهور الجياد ، كل شىء قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ! دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا إحساس بالبناء ، لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء فى العمارة أو فى الأدب أو فى النقد ، الأسلوب العربى

فى العمارة من أو هى أساليب العمارة التى عرفها تاريخ الفن وإذا عاش لليوم فإنما يعيش بالزخرف ، فن الزخرف العربى هو الذى أنقذ العمارة العربية ، إن العمارة العربية — إلا فى مصر — ماهى فى رأيى سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفة قوية ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة ، إنما هى وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يبهر البصر ولا فكر خلفه . أما فن الزخرف العربى فهو فى الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ . والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف ، كل شىء عند العرب زخرف . الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس ؛ فسيفساء اللفظ والمعنى ؛ و « آرابسك » العبارات والجمل . كل مقامة للحريرى كأنها باب لجامع المؤيد ، تقطيع هندسى بديع

وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذا بالبهرج الخلاب . كذلك الغناء العربى « أرابسك » صوتى ؛ فلا مجموعة أصوات متسقة البناء كما فى « الديتيرامب » أو « الأوركسترا » الأغريقية أو كما فى « الكورس » الجنائزى المصرى . ولا حتى مجرد صوت ينطلق حراً بسيطاً مستقيما . إنما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم كأنها (ستالاكتيتات) غرناطية ، لا يكاد يسمعه (القاضى الفاضل) حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه ؛ كان هذا فى العهد الأول للموسيقى إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية تخرج من القلب تعبيراً عما فى القلب ، أو رمزاً لفكرة من الأفكار ، والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب لا يحبون الرموز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزى ،

ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز ، وإلا الصلة المباشرة بالحس ، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل ، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل ، ولقد حاول الفارابى فيما أذكر التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الأغريقية ، وكان لا بد له من الإخفاق لأسباب قد أذكرها بعد . كذلك التصوير العربى على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ولم يؤد لغير تلك الغاية «المنياتور» الفارسى . قد يكون للدين دخل فى تأخر النحت والتصوير عند العرب ، غير أنى أعتقد فى براءة الدين ، فان العرب كانوا دائما ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم ، لقد حرم الدين الشراب ، فأحلوا هم الشراب فى قصور الخلفاء ، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر فى أدب أمة بأحسن مما وصفت فى الأدب العربى ، لا شىء فى

الأرض ولا فى السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة ، أما النحت أو التصوير الكبير فليس فى طبيعتهم لأن تلك فنون تتطلب فيمن يزاولها إحساساً عميقاً بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل ، والوعى الداخلى للكل فى الجزء وللجزء فى الكل ، وليس هذا عند العرب ، فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد . لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق فى الأدب ، لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة ، قليل من الكتب العربية فى الأدب تقوم على موضوع واحد متصل ، إنما أكثر الكتب كشاكيل فى شتى الموضوعات تأخذ من كل شىء بطرف سريع : من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية ، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء ، فلم ينقلوا ملحمة

واحدة ولا تراجيديا واحدة ولا قصة واحدة ، العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير ، لأنها تتعجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتلئ طربا وإعجابا ، لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوى وإشباع لذات الحس ، حتى الحكمة ، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة . إشباع لذة المنطق والمنطق جمال دنيوى ، ولا أستغرب غضب نيتشه على إيروبيد لإسرافه فى هذا المنطق على حساب الموسيقى ، من المستحيل إذن أن نرى فى الحضارة العربية كلها أى ميل لشؤون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه مصر والهند من كلمتى الروح والفكر ، إن العرب أمة عجيبة ، تحقق حلمها فى هذه الحياة ، فتشبثت به تشبث المحروم ، وأبت إلا أن تروى ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها

عبا قبل أن يزول الحلم وتعود إلى شقاء الصحراء ، وقد كان . إن موضع الحضارة العربية من « سانفونية » البشرية كموضع الـ «سكيرتزو» من سانفونية بيتهوفن : نغم سريع مفرح لذيذ ! !

لا ريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هى الروح ، هى السكون ، هى الاستقرار ، هى البناء . والعرب هى المادة ، هى السرعة ، هى الظعن ، هى الزخرف !

مقابلة عجيبة : مصر والعرب هما وجها الدرهم ، وعنصرا الوجود ! أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح ! إنى أومن بما أقول ، وأتمنى للأدب المصرى الحديث هذا المصير : زواج الروح بالمادة ، والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف ! تلك ينابيع فكر كامل ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير ، إن

أكثر المدنيات يميل إما إلى ناحية الروح ، وإما إلى ناحية المادة .

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت فى وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة وهذا الاتزان بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة الأغريق . نعم أعود فأرد إلى أمة الأغريق اعتبارها ، وأعترف أنى عندما وضعتها فى كفة المادة كنت متأثرا بعض الشىء بكلام « تين » و « تين » عقل خلاب لكنه عقل . والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحى للمدنيات . ما هدانى الى الحق إلا القلب .. إلا طول تأملى فى جبهة «البارتينون» . من دماغ ذلك الجواد الذى خلقته يد « فيدياس » فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحى إلى بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشىء آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميلبومين » أن جاءتنى

ببينة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف وذكرت من فورى أن أصل الأغريق جنسان مختلفان : اليونيون القادمون من آسيا المعروفون عند الهنود باسم « اليافاناس » أى عباد « يونا » ؛ والدوريون الحربيون البرابرة الهابطون من الشمال ؛ وإله اليونيين : هو « ديونيزوس » وإله الدوريين هو « أبولون » . وها هنا تفسير الأغريق : فى هذا الصراع بين ديونيزوس رمز الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة . . . وبين أبولون رمز الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بين الروح والمادة ، وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى ، ديونيزوس إله إسيوى فيما يخيل الى ، جلب من الهند بلامراء . فغدا فى اليونان ينبوع الموسيقى . لهذا السبب قدرت إخفاق الفارابى . فإن الموسيقى العربية وليدة عقل واع ، لأن العرب أمة الفردية والوعى

والمنطق العقلى والظاهر المحسوس ، إن العرب من عباد أپولون وهم لا يشعرون . ان العرب لا يمكن أن يفهموا ديونيزوس ، تلك النشوة الدينية الجارفة التى تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعى كى تصله مباشرة بالطبيعة : إن أغانى عباد « باكوس » الحماسية فى الغابات ومزامير ال(ساتير) لشىء بعيد إدراكه على العقلية الفردية . شعور الانسان فى لحظة أنه انقلب مخلوقا له جسم جواد ورأس رجل أو رأس رجل وأرجل ماعز . هذا الاتحاد بين الحيوان والإنسان إحساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء ، هذا التلاقى بين الأنواع وبين القوى فى مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات الإلهية البائدة التى كانت تحكم الأرض قبل ظهور الإنسان . . . مخلوقات لا هى من الإناث ، ولا هى من الذكور ، لا هى من الحيوان ولا هى من الإنسان

لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت . كذلك (الساتير) فى المتيولوجيا الأغريقية رمز للإنسان الأول ذلك الإنسان الدانى من الحيوان القريب من الآلهة ، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع القوة الخالقة عند الأغريق والهنود كما هى عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة الإلهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر ، وببريق من ذلك النور الروحى والإلهام الذاتى يرى به كتلة الزمن من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لمحة واحدة .

تلك القدرة الخفية هى حاسة بائدة كانت للإنسان الأول ، وفقدناها اليوم ، نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بها ، ولم يبق لنا اليوم إلا العقل المحدود والمنطق القاصر .

وها نحن اليوم فى هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة ! أين ذهب ديونيزوس ؟ وهل يبعث من جديد ؟ وإذا بعث فهل يجد من يعرفه في هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية ؟ !

رجل واحد ما زال يذكر هذا الإله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كما عرف غالياس أصحاب الكهف ! ! وهو وحده كذلك الذى يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر ، هذا الغالياس العصرى هو : «تاجور» ! إنه يتكلم كثيراً عن ذلك الإتحاد بين الإنسان والطبيعة . وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة العظمى التى تخترق الكون . وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد . هذا كلام جميل . لكن هل تراه يشعر بحقيقته ؟ يخيل إلى أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الأغريق . بل لقد انقضت قبل أن تنقضى

دولة الأغريق . انقضت بطغيان منطق سقراط على روح هوميروس . انقضت بطرد ديونيزوس من تراجيديات إيروبيد (غضبة نيتشه المعروفة) ، انقضت بغلبة الإحساس العقلى على الإحساس الروحى ، انقضت بانتصار « أبولون » فى النهاية على « ديونيزوس » . وهكذا اختل التوازن ، ورجحت كفة المادة ، وانطفأت الحضارة الأغريقية إلى الأبد . ولم ترث أوروبا منها غير كنوز العقل والمنطق ، وبقيت فى الظلام كنوز ديونيزوس الخفية .

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب فى تطعيم الروح بالمادة ، فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوما ؟

دمنهور فى مايو عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين .

النقـــد

—

... نحن متفقان، ولا خلاف بيننا فى الغاية. وهو مطلبنا. هنالك تفاصيل أفترق فيها عنك ولن أعود إليها فأنا أفزع من النظر إلى الوراء، خشية أن أتحول إلى تمثال من الملح، أو حتى إلى تمثال من الذهب. نفسى تصدف أحياناً عن الفكرة الجامدة مهما تكن خالدة، ويحلو لى أحياناً أن أنثر الأفكار عابثاً من نافذة قطار. إن رسائلنا فى حقيقتها لا تعنى أكثر من أثارة الغبار فى أرض نائمة مفروشة بالحصى. لسنا نصدر أحكاماً بهذه الكتب السريعة. إنما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض سوف يلتقطها ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال. اتفقنا إذن. أو ينبغى لنا أن نتفق على أى حال حتى ننصرف إلى شىء جديد. إن البحث عن الجديد

هو الخليق عندى بالمجهود . ولقد فتح لنا اليوم باب الجديد صديقنا « أحمد أمين » . قال لى ذات مساء أنه يود لو يضع كتاباً فى أصول النقد . النقد ؟ لفظ رن فى أذنى . وذكرت للفور أن رسالتى السابقة إليك كان موضوعها « الخَلق » . وقلت فى نفسى ما يمنع من إتمام الكلام فى رسالة ثانية يكون موضوعها « النقد » وإذا الأمر ينكشف لى عن قضية كبيرة : أنعد النقد كالخلق خاضعاً لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التى ذكرتها فى ردك : التيار المصرى القديم ، والتيار العربى ، والتيار الأوربى ؟ أم نعد النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات ؟ أما أنا فلن أجيب من فورى عن هذا السؤال . فأنا أكتب ولا أدرى أين يحط بى القلم . دعنى أولا أنشئ على هذا النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعنى الآن بالغاية . إن الغاية أحياناً رخيصة بجانب الوسيلة ، على الأقل فى نظر

الفن . لأن الغاية فى الفن لا تبرر الوسيلة . الحياة كذلك تلك القطعة الفنيـة التى أبدعها الخالق ، أهى شىء غير وسيلة متينة التكوين ؟ ألها معنى فى غير ذلك الطريق المبين الذى أوله ضباب وآخره ضباب ؟ خط هنـدسى رسم على لوح الوجود ، كيف ابتدأ ، كيف انتهى ؟ لا يعنى ذلك علم الهندسة . إنه خط بين نقطتين وكفى . ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة . ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم . إن الغاية لا تهم . إنما المعنى كله فى الوسيلة . الحياة هى الطريق . العلم هو الطريقة . الفن هو الأسلوب . أما الغاية فلا غاية . وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقـة يوماً من الأيام ؟ محال . ما نحن إلا أسلوب الخالق . ما الكون إلا أسلوب . الأسلوب كل شىء عند كل خالق وفى كل خلق . إن الخالق أعظم من أن يحبس إرادته

الخالدة فى حدود « غاية » لفظ يدل بذاته على معنى الانتهاء . فى اعتقادى أن كلمة « غاية » هى من صنع العقل البشرى الصغير . هـذا العقل المحدود الذى يضع كل شىء دائماً داخل حدود ، ويأبى إلا أن يكون لكل شىء أول وآخر . إنما الخلود فى الأسلوب . لأن الأسلوب لا أول له ولا آخر ، فهو شىء كائن دائماً ، لا علاقة له بالزمن . إن رجل الفن ، وهو المقلد الأصغر للمبدع الأكبر ، يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية . لأن الغاية فانية كاسمها . وإنما يعيش الفن بالأسلوب . لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام ، وفنيت الغاية من بناء البارتينون . دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية قد ماتت ، وبقى أسلوب الفن وحده خالداً فى الأهرام والبارتينون . خدمة الإنسانية غاية العلم فى نظر البسطاء ولو سئل عالم فى ذلك لابتسم : « مالى وللإنسانية ! إنما

أنا أبحث عن سر أسلوب الصانع الأعظم . إنما هى لذة البحث فى ذاتها . إنما هى طريقة البحث وأسلوبه . ولولا ذلك السرور الذى يملأ نفسى إذ ينكشف لعينى الباحثة عن جمال أسلوب الله لما تجشمت فى سبيل العلم ، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع » . المخترعات كذلك ليست غاية العلم . هى تطبيق للعلم . إنما العلم هو البحث الخالص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال . لقد كان الأغريق يبحثون ولا يطبقون . فيثاغورس مثل من أمثلة الأسلوب الخالد للعلم الخالص . الأسلوب إذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق ، وكلمة الأسلوب رحبة عميقة كالبحر ، فى جوفها كل كنوز المعرفة التى يصبو إليها البشر . ولعل كل ما أوتيه الإنسان من سليقة سامية منذ أول الأزمان ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق فى نفس الإنسان . هذا المنطق الذى نشأنا عليه ، ونرجع إليه فى

كل حياتنا ، هذا الإحساس بالنتيجة والسبب ، هذا الشعور بالتناسق والتناسب ، هذا الإدراك للصله التى تربط الشىء بالشىء ، من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟ أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق ؟ فتحت البشرية عينيها فألفته حولها ، فهو موجود قبلها وقبل الخليقة كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء . إن أسلوب المبدع فى صنع الخليقة هو وحده المنبع الأزلى لهذه الصفات كلها : المنطق ، ارتباط السبب بالنتيجة ، والشىء بالشىء ، والجزء بالكل ، والتناسق والتناسب . صفات هى بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فنى عظيم . أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير . وما أول صورة رسمها الإنسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى إعلان شعوره الخفى بتلك الصفات . إن رجل الفن الأول هو أول إنسان عرف «المنطق» صفة فنية بعد أن كان المنطق

سليقة ساميـة تسبح فى أنحاء نفسه ولا يعرف ما هى .
إن المنطق الذى شيد الأهرام لهو صورة محكمة للمنطق الذى شيد الكون . ما المنطق ؟ ما معنى المنطق ؟ سره فى تلك المرآة العظيمة الصافية التى تحيط بنا كالجدران : الوجود ، أجمل مثال للمنطق فى الأسلوب ينبغى لرجل الفن والأدب والعلم أن يطيل فيـه النظر . كل شىء فى هـذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة وعلى قاعدة واحـدة . ما القاعدة التى بنى عليهـا الوجود ؟ هى القاعدة التى بنيت عليهـا الأهرام . هى قاعدة كل بناء : التمـاسك بين الأجزاء فى كل واحد متسق . هذا التماسك ما علته وكيف يكون ؟ قانون أسـتطيع أن أفرغه كما يفعل الرياضيون فى صيغة بسـيطة من لفظين : « الأخذ والعطاء » . كل شىء فى هذا الوجود يحيا على نمط واحد ! . وكل حياة فى هـذا الوجود

لها مظهر واحد : أخذ وعطاء فى حركات متصلة متشابهة[١] : زفير وشهيق عند الإنسان والأحياء ، اكتساب واشعاع عند النجوم والأشياء . الأخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال فى حياة الفرد والمجتمع والأمة والأمم . وفى حياة الأخلاق والسياسة والاقتصاد . وفى حياة المادة والروح . وفى حياة الأرض والأجرام والسدم . ليس فى الوجود شىء لا يأخذ ولا يعطى . وليس فى الوجود شىء يعطى ولا يأخذ . كل شىء يعتمد على كل شىء فى هذا الكون . بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا وكل خلق بنيان . ولا بنيان بغير وحدة شاملة ، ولا وحدة شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر ، وبين الجزء والجزء . يتساءل هنرى بونكاريه فى كتابه «قيمة العلم» : «أيحق لنا أن نتكلم فى سبب ظاهرة من ظواهر الكون

(١) تعريف شخصى للحياة ، أدبى الصيغة بالقياس إلى تعريف : «كاود برنارد» العلمى الصيغة .

ما دام كل جزء من أجزائه متصلا بكل جزء برباط التضامن ؟ إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد ، بل نتيجة أسباب غير متناهية فى العدد . إن أية ظاهرة مهما كان شأنها ليست فى الغالب إلا نتيجة لحالة الكون كله فى لحظة سلفت » فالكون كله إذن إن هو إلا إناء واحد صنعته يد واحدة من عناصر متآلفة وهذا التآلف أو التضامن إنما هو وليد ذلك القانون : « الأخذ والعطاء » . ليس هذا كل المنطق فى صنع الوجود ، إنما المنطق فى تركيب ذلك القانون . ما قوام الأخذ والعطاء ؟ هل يكون أخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهات ؟ ما الحال لو أن الخالق أبدع وجوداً آخر على أسلوب آخر ، فصنع أناساً يعيشون بالزفير ولا يعرفون الشهيق . ومخلوقات تأكل ولا تصرف ، وأجراماً تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع ؟ أى اتصال يمكن

أن يقوم بين كائنات خلقت على غير أسلوب واحد ؟ لا اتصال ، وحيث لا اتصال لا بناء . لا خلق ولا بناء إذن فى الكون أو فى الفن بغير وحدة الأسلوب . كذلك فى مادة الأجزاء . هل يقوم أخذ وعطاء بين أجسام لا تتحد فى مواد البناء ؟ أى اتصال بينى وبين أخى وابنى لو أن الخالق صنعنى من عناصر غير عناصرهما فجعلنى من يابس ورطب وجعلهما من نور ونار وغاز وبخار ؛ أى ارتباط لو أنه جعل كل مخلوق منفرداً بمادته وهيئته وعناصره عن كل مخلوق . أى هرم يمكن أن يشيد بأحجار ، أحدها من صخر ، وآخر من عجين ، والثالث من ورق ، والرابع من طين ؟ لا ارتباط بغير تشابه وتماثل . ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة فى التركيب إن كل ما نحس وجوده يتحد معنا فى بعض العناصر . بغير هذا ما كنا نعترف له بوجود إنا نعرف

الأجرام لأن أجسامنا تعرف الحرارة والضوء والحديد . التشابه إذن هو شرط الأخذ والعطاء . الاختلاف كذلك شرط آخر . وهل يقوم أخذ وعطاء إلا بين كائنات مختلفة ؟ ما الحال لو أن الخالق صنع كل شيء ككل شيء ، فجعل كل رجل ككل رجل . وكل جرم ككل جرم ؟ طبع واحد ، ومنظر واحد ، وحجم واحد . أليس هذا التشابه المطلق ينفى الشخصية ؟ وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء ، ولا تماسك ولا اتصال ، وهل من صلة بينى وبين غيرى إلا لاختلاف شخصه عن شخصى وما عنده عما عندى ؟ وهل رابطة الأجرام إلا اختلافها فى الأحجام ؟ الجاذبية ، الحب ، هل علتهما إلا اختلاف النسب فى القوى والأشكال ؟ إن مثل هذا الكون المتماثل لا يمكن كذلك أن يشيد أو يوجد . مثله مثل قصة تمثيلية أشخاصها لهم عين الإسم والجسم والطبع

والحظ يتكلمون عين الكلام ، ويتحركون عين الحركات ويتصرفون عين التصرفات ! أى علاقة يمكن أن تنشأ بين هذه المخلوقات ؟ وهل يشعر أحدهم بوجود الآخر ؟ وهل يدرك أحد منهم معنى كلمة « أنا » ؟ لا بد من بعض الاختلاف بين الكائنات حتى يتميز كل كائن من الآخر ومتى تميزت الأشخاص والأشياء والأجزاء نشأ بينها الأخذ والعطاء ، سر التماسك فى كل بناء .. ها هنا إذن قوام التناسق : « التشابة لا كل التشابه ، والاختلاف لا كل الاختلاف ! » (بيتهوفن هو الذى كشف لى منذ سنوات عن سر التأليف بين صوتين فى عين الوقت . فقد لاحظت أنه يجمع بين صوتين متشابهين لا كل التشابه مختلفين لا كل الاختلاف . وأدركت أن لا تناسق بغير هذا . فلو أنه جعل الصوتين متشابهين كل التشابه لفنى أحدهما فى الآخر ، وما ميزنا شيئاً غير

صوت واحد . ولو أنه جعلهما مختلفين كل الاختلاف لاستحال على الأذن أن تصل بينهما وهما متباعدان متنافران . فأساس « التناسق » فى الموسيقى والفن كأساس التناسق فى الحياة والكون : إئتلاف بين الأجزاء لا كل الائتلاف ، واختلاف بينها لا كل الاختلاف .

جملة القول عندى أن أسلوب الله فى صنع الكون هو وحده منبع الفن ، هو وحده مصدر ذلك الإدراك الإنسانى للجمال منذ مبدأ الأجيال . أما نقاد القرن التاسع عشر فلا أحسبهم رفعوا أبصارهم إلى هذا الأسلوب مستلهمين . إنما هم قد خروا أمام تمثال العلم ساجدين ، أنظارهم خاشعة ترنو فى رجاء إلى شعاعين من الكهرباء صادرين من عدسات عينيه الجامدتين . القرن التاسع عشر قرن تأليه العلم . فلقد بهر العلم العالم

بانتصارات حاسمات متواليات ، فإذا الأدب والفن والفلسفة كلها تهرع إليه تقر له بالغلبة والسلطان . وإذا كل شيء يطلب إلى العلم تفسيراً . وإذا العلم فى نشوة الظافر وبسمة الواثق لايأبى أن يقضى فيما يعنيه وفيما لايعنيه . وإذا العلم وهو علم المادة يريد أن يتحدث فى شئون الروح . وإذا سئل عن الروح قال دونكم هذا الطريق وأشار إلى عين الطرائق التى أدت إلى الفوز فى شئون المادة : التحليل والتركيب والتجربة والقياس والاستنتاج والاستقراء الخ . بهت العالم لنظرية النشوء والارتقاء ، وآمن الناس أن أصلنا من ماء وخلايا حية وحيوان ظل يسمو فى المرتبة على مدى الأزمان حتى بلغ القرد جد الإنسان ! نظرية جميلة ، خلب جمالها اللب على الرغم من بشاعة ذلك الجد الغول . أما صدقها فجائز من حيث المادة والأجسام . ولكن .. وهنا القضية : أتصدق

هذه النظرية على الروح أيضا وشئون الروح ؟ الإحساس بالجمال : أيخضع أيضا للنشوء والارتقاء ؟ نعم ، نعم ، نعم . هكذا قالت المدرسة الإنجليزية (سبنسر ، جرانت ألن رسكن) . وكان لابد لهذه العقول التى فتنتها نظرية التطور فى المادة أن تبرر للناس نظرية التطور فى الجمال .

وعجب الناس لنظريات علم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الحياة وأبحاث (لا مارك) فى تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام ، فقامت المدرسة الفرنسية (هبوليت تين) تخرج للفكر والأدب نظرية للجمال والفن : الوحى فيها والإلهام : مقاييس الحرارة وموازين الأحجام !

بل إنى لأرى أصبع العلم قبل ذلك بقرن يقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها فى الجمال (عمانويل كانت) .

ولم يكف العلم هذا التوجيه والتأثير بل تناول بيديه

فى هذا العهد الحديث جسم الجمال ، وأعمل فيه المشرط والمسبار (علم النفس الحديث) . قضى الأمر ، وخرج الجمال من حدائق الفلسفة إلى معامل العلم . . !

لست أزرى على طرائق العلم . فهى وسائل البشرية التى لا تملك غيرها . وأذكر يوم كنت أرصد وقتا للتفكير فى هذه المسائل أنى بسطت أمام نفسى هذا السؤال الساذج : الحيوان ما علمه بالجمال ؟ حصان بين مهرتين إحداهما جميلة مليئة شهباء والأخرى قبيحة هزيلة عرجاء إلى أيتهما يميل ؟ ما ترددت يومئذ أن أقول فى ثقة واقتناع « إلى الجميلة يميل ، ما وجه الترجيح ؟ لست أدرى ، وحبذا التجربة فهى الحكم الفصل ! » . لكنى يومئذ كنت أفكر تفكيراً صرفا فى أبراج عاجية اعتدت أن آوى إليها للتفكير الهادئ ، فأين لى بالخيول والأفراس أجرى عليها التجاريب ؟ فها أنذا أقر بأن التجربة وسيلة

بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة. وأقر بأنى شعرت يوما بالحاجة إلى ممارستها فى شئون الجمال. غير أنى على الرغم من هذا لا أحب أن أعتقد ببساطة أن نظريات العلم فى شئون المادة تصدق دائما فى شئون الروح. لا شىء يستطيع أن يقنعنى بأن احساس الجمال وليد تطور ونشوء. بى رغبة أن أصيح بغير دليل فى يدى أن إدراك الجمال ولد كاملا فى قلب الإنسان منذ رفع بصره وبصيرته إلى أسلوب الله فوعاه. إنى أخشى أن نقع فى الغلط إذ نطبق نظريات المادة فى مسائل الروح، وهل تستطيع أن تجيز قول رسكن وجرانت ألن فى الألياذة:

«... ما كان يعنى الأقدمون بالطبيعة ولا بجمالها إلا حين يتصلان بعيش الإنسان. ففى الألياذة ما كان يوصف منظر طبيعى لذاته، بل لمنفعته للإنسان، كأن يكون مكانا خصيبا يفيض بالحنطة أو تكثر فيه الجياد. ما كانت

الطبيعة سوى إطار للحوادث والأشخاص ، لا إنها لذاتها محل للوصف . إن الطبيعة لم تحب لذاتها إلا فى العصر الحديث ، حيث استيقظ الإحساس بها ، احساس صاف خالص لا تشوبه شائبة النفع أو المصلحة . . » ماذا أقول فى هذا الكلام ؟ أهو جهل بمشاعر الأقدمين ؟ أم تورط فى تطبيق نظرية التطور والنشوء ؟ أنصدق حقا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصا لدنوهم من الحيوانية ؟ أنصدق أن « هومير » لم يحس جمال الطبيعة لذاتها ؟ أهذا رسكن يقول هذا الكلام ؟ أما أنا فقد مضى كلامى فى الطبيعة والقدماء ، ورأيى الذى أبديته فى رسالتى الأولى أن الأقدمين كانوا أقرب منا إلى الطبيعة وإلى فهمها . لقد كان الأقدمون يحسون أنهم جزء من الطبيعة ونغم من أنغامها . أما رسكن وألن أو الإنسان الحديث فلا يحس إلا ذاته الآدمية منفصلة عن الطبيعة

وعن كل شىء . دليلى فن القدماء من مصريين وأغريق . أهذا فن قوم لايحسون الطبيعة لذاتها ولا يدركون قوانينها وأساليبها ؟ إلى هذا الحد يصل الانقياد إلى النظريات ؟ من أجل هذا لا أريد التمكين للعلم حتى يجلس على عرش النقد دون شريك . أحب طرائق العلم . لكنى أخشى نتائج العلم . فلنرتفع بالروح قليلا . لست أريد أن أضع الروح تحت مبضع العلم ، رهبة منى أن يشقها فيجدها غلافا أجوف . وإنى لا أنسى يوم شاهدت تشريح جثة آدمى للمرة الأولى . أى قلق يومئذ مزق إيمانى بقيمة الإنسان ! كلا . إنى كرجل من رجال الروح لا أريد أن أقنع فى خير ما أعيش به وله . يريح نفسى دائما أن أقول إن عقل العلم لا يكفى . ولا بد دون إدراك الجمال والروح من العودة إلى القلب . أريد ألا يخرجنى العلم من ذلك الإيمان الذى كان يضىء فى قلوب المصريين

القدماء. إيمان قربهم من الخالق، فإذا هم ببصائرهم العميقة العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أسلوب الله والنفوذ إلى قوانين إبداعه. إن أقصى العلم الإيمان. أحب ذلك العلم المؤمن الشاعر الذى عرفه أيضا الفلكيون العظام فى القرنين السادس عشر والسابع عشر: كوپرنيك، وجاليليه وكبلر، آخر قطرة من ذلك العلم الممزوج بالإيمان، كانوا ينظرون إلى الكواكب كما نظر إليها من قبل المصريون الأقدمون. لا بعين العقل وحده، بل بعين القلب أيضا. كانت السماء والنجوم فى نظرهم مخلوقات حية. كانوا أيضا يحسون فى كتلة النجوم وفى هذا الكون بأكمله الروح الخالقة ويد المبدع الأعظم. ما أروع هذه العبارة من كبلر، فيها تلخيص جميل لكل ما يملأ نفسى: «.. كل الخليقة ليست إلا سمفونية عجيبة فى مجال الروح والأفكار كما هى فى مجال الأجسام والأحياء. كل شىء

متماسك مرتبط بعرى متبادلة لا تنفصم . كل شىء يكوّن كلا متناسقا . إن الله قد خلقنا على صورته ، وأعطانا الإحساس بالتناسق . كل ما يوجد حى متحرك ، لأن كل شىء متتابع متصل . كل كوكب وكل نجم إن هو إلا حيوان ذو نفس . إن روح النجوم هى سر حركتها وسبب ذلك الحب الذى يربط بعضها إلى بعض ، وتعليل ذلك النظام الذى تسير عليه الظواهر الطبيعية . . » أولئك رجال ساروا فى بيداء العقل دون أن ينسوا دليل القلب أولئك هم العلماء العظام ! أرى أنك قد استشففت رأيى بعد هذا التمهيد . نعم ولا أخشى أن أجيب الآن عن السؤال فأقول إن التيارات الثلاثة التى ذكرتها تصدق أيضا فى النقد كما تصدق فى الخلق . أما التيار الأوربى فى النقد فهو المرتكز على العلم . ولقد وصل إلينا هذا التيار بالفعل وتأثرنا به . وإن بعض كتب النقد التى ظهرت

أخيراً فى مصر الحديثة تنم عن هذا الاتجاه العلمى . وهو أمر لا بأس به ، بل هو واجب محتوم ، على شريطة أن نقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا إذا أردنا أن ننشئ لآدابنا طريقة شخصية كاملة فى النقد . فأما التيار المصرى القديم فهو النقد المعتمد على الذوق أى سليقة المنطق والتناسق وهو عند المصريين القدماء سليقة المنطق الداخلى للأشياء والتناسق الباطن أى القانون الذى يربط الشىء بالشىء ؛ أىّ جمال للأهرام غير ذلك التناسق الهندسى الخفى وتلك القوانين المستترة التى قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار ، جمال عقلى داخلى ، كذلك أسلوب الخالق لا يعنى دائما بالجمال الظاهر وحده فى خلق الطبيعة . فأى جمال لجبل المقطم ؟ إن الجمال الظاهر نسبى لا يقدره غير الإنسان إنما المنطق الداخلى للأشياء هو كل جمالها

الحقيقى ، هذا الإدراك للجمال الخفى فطن إليه المصريون القدماء يوم صنعوا « الأهرام » ، فهم لم يرموا إلى الجمال الظاهر الذى يسر العين . إنما أرادوا أن يصنعوا بأيديهم البشرية ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، فى روعتها وضخامتها وقوة تأثيرها . وقد تمت المعجزة . وإذا الأجيال على مدى آلاف السنين تعبر الأهرام عبورها جبل المقطم سواء بسواء . وكأنما اختلط الأمر فى ضمير الزمن وضمير البشرية فارتفع هذا « الخلق » الآدمى إلى مقام الظواهر الطبيعية ! أولئك قوم أرادوا أن يقلدوا أسلوب الله فى عظمته ودقة قوانينه . فأعانهم الله على ما التمسوا ، وكشف لهم عن بعض أسراره وطرائقه ! هذا المقياس المصرى القديم للجمال ما أحسبه قد أثر بعد فى حياتنا الفكرية أو فى أحكامنا الفنية . أما التيار العربى القديم فهو النقد الذى قوامه ذوق الحس . أى سليقة المنطق

الظاهر والتناسق الخارجى . الجمال عند العرب هو الجمال الظاهر الذى يسر العين ويلذ الأذن . أنستطيع أن نتخيل العرب تبنى الأهرام أو تقدر فيها جمالا ؟ لقد جاء العرب مصر وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها ولم يروا فى الأهرام إلا شيئاً قد يحوى نقوداً مخبوءة ، أما بناؤه فشىء لا يحسب فى الفن . إنما الحسن عند العرب حسن الهيئة قبل كل شىء . المساجد كالعرائس تكاد تخطر حسناً بزخارفها ، زينة للناظرين . بغير هذا فلا عمارة ولا فن . الشعر رنين لذيذ ، وخيال جميل ، ومعان لطيفة وألفاظ مختارة ظريفة ، بغير هذا فلا شعر ولا فن . الجمال عند العرب جمال إنسانى . والفن عندهم شىء صنعه الإنسان لنفسه وللذته . الفن العربى القديم فن إنسانى دنيوى . والفن المصرى القديم فن إلهى دينى . لهذا اختلفت المقاييس فى الجمال بين الفنين . أحدهما يعنى

بالتناسق الشكلى الذى يروق الإنسان ، والثانى يعنى بالتناسق الخفى بغير التفات إلى الإنسان . ولعل المقياس العربى القديم هو فى مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم فى قضايا الشعر والأدب .

هذا المقياس العربى ذو الأبرة الدقيقة عجيب فى تسجيل كل انحراف عن منطق الألفاظ . إنما هنالك فى اعتقادى منطق آخر مستتر ، أمره يعنى المقياس المصرى .

إنى يوم قلت بمزج الروح بالمادة فى آدابنا كان يجب على أيضاً أن أقول بوضع المقياس المصرى فى النقد بجانب المقياس العربى . . .

كوم حمادة فى سبتمبر عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين .

بين الخالق والناقد

—

. . . . حقيقة أذكر أنك كنت عازماً على نقد كتابى « محمد » ، فما الذى منعك ؟ وأذكر أيضاً أنك أفضيت إلىّ بخوفك من أن يسىء بعض رجال الدين فهم مرادك فأضارّ أنا بذلك ؛ وهى عاطفة نبيلة حمدتها لك . على أنى فيما أذكر أيضاً قد شجعتك على المضى فى نقدك وهو فى جملته لا يؤيدنى . بل إنى قد وافقتك عليه معجباً بفراستك ، مقدراً لبراعتك فى الوقوع من فورك على المواطن التى يجوز فيها النقد والكلام . فأنت ترى أن المؤلف لم يغضب ، بل ابتسم واغتبط ليقظة الناقد . فى الواقع إنى لست أومن كثيراً بتلك الأسطورة التى تروى عن غضب المؤلفين . واسمح لى أن أتكلم بلسانهم فأقول إن هذا الغضب لا يجد سبيلا إلى نفس الكاتب

إلا إذا شعر من ناقده بعزوف عن الحق والجد ، ونزوع إلى الحط من القدر مبطن بسوء القصد . فالناقد الذى يحترم شخصى ويهدم عملى لا يغضبنى . لأنى أعلم أن الأديب لا يهدمه النقد . فهو كائن ممتاز لا يُهدم ، ولا يقبض إلا بإذنه ، ولا يقضى عليه إلا بإرادته . إن الأديب لا يموت مقتولاً ، بل يموت منتحراً . ومع ذلك فإنى لا أحب للمؤلفين أن يغضبوا على أى حال ، فإن الغضب علامة الضعف الآدمى . ولا شىء فى الوجود أقوى من الابتسامة . ولكن ، من ذا الذى أعطى القدرة على الابتسام الصافى الجميل فى كل موقف وفى كل حين ؟ أهو الجبار وحده ؟ ألا ترى معى أن الجبروت إنما هو الصفاء ؟ (إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم ، فابسم للقدر إذا بطش بك ، ولا تبطش بأحد) ... تلك كلمة لعمر الخيام ، وضعتها فى صدر

كتابى (عصفور من الشرق) الذى لم أكتب منه فى سنوات ثلاث أكثر من ثلاثة فصول . وإنك لتعجب إذا قلت لك إن هذا البطء أو هذا العجز مرجعه علة واحدة قد انكشفت لبصيرتى آخر الأمر : عدم استكمال الصفة العليا التى يرتديها بعض رهبان الفكر كما ترتدى المسوح : الصفاء .

إن كنت من رأيى فى كل هذا فإن لى عندك حاجة : أن تنثر معى تلك الابتسامة بين الأدباء ، فإن الأدب شىء جميل ؛ هو جنة لا صخب فيها ، وهو معبد لا تدخله الأحقاد . إن أعجب ظاهرة فى أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب ؛ تلك الصداقات التى نراها فى آداب الحضارات الكبرى قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوم بمال . ما الذى يعوزنا نحن ؟ أهو شىء فى الخلق ؟ أم هو ضعف

فى النفس ؟ أم هو نقص فى الثقافة ؟ لست أعلم . إنما الذى أعلمه : أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب والفكر ، هى أظهر دليل على نضوج هذا الأدب ، وهذا الفكر .

القاهرة فى يونيو عام ١٩٣٦ من رسالة إلى أحمد أمين .

منابع الفن المصرى

—

فى عام ١٩٣٣ عقب نشر كتابى « أهل الكهف » جاءنى أديب صحفى يحادثنى فى شأنه ويسألنى فيما حملنى على اختيار موضوعه ، فأجبته :

— حملنى على ذلك شىء واحد : الرغبة فى كتابة مأساة مصرية على أساس مصرى . إنك تعلم أن أساس المأساة الإغريقية هو « القدر » . هو ذلك النضال الهائل بين الإنسان والقدر ! فهل تعلم ما أساس المأساة المصرية كما أتصورها ؟ أساسها : « الزمن » ؛ أساسها ذلك النضال الهائل بين الإنسان والزمن . اقرأ « كتاب الموتى » تحس ذلك للفور . عند الإغريق هو « القضاء والقدر » وعند المصريين هو « الزمان والمكان » . لكل من الشعبين تنين مخيف كتب على الإنسان قتاله ! وأنت

ترى أن « تنين » المصريين وهو « الزمان والمكان » ، رأسه فى هذه الأرض وذنبه فى العالم الآخر المجهول . نعم إن مصر لا يمكن أن تفكر فى غير الخلوص إلى حياة أخرى . دائماً ماوراء الطبيعة . دائماً الفلسفة الدينية دائماً ذلك الفزع من الموت وذلك الأمل فى انتصار الروح على الزمان والمكان ! وذلك الانتصار إنما هو فى « البعث » . . بعث لا إلى عالم آخر لا يعرف الزمان والمكان . وإنما بعث إلى عين هذا العالم و نفس هذه الأرض بزمانها ومكانها . ولقد شيدوا الأهرام لتقوى على هذا التنين . حصون الروح فى حربها المخيفة مع عناصر الفناء الآدمى . التحنيط كذلك اختراع آخر ولدته ضرورة الدفاع فى تلك الحرب الضروس ! أين تلك الحرب من حرب طروادة ! لم تكن مصر فى حاجة إلى هوميروس منها يسطر أخبارها . لأن صليل تلك الحرب

لا يوصف من قلم بشرى . إنها صيحات الروح تدوى طول الأبد من بين سطور « كتاب الموتى » . إن أعظم مأساة لم تدون ولا يمكن أن تدون : المأساة المصرية ! .

وبعدهذا تسألنى ما الذى حملنى على كتابة «أهل الكهف» إنها صورة ضئيلة وصدى خافت لتلك المبارزة بين « الزمن والإنسان » وفى قصتى « شهر زاد » صورة أخرى للمبارزة بين « الإنسان والمكان » .

— إذن أنتم تقولون باستيحاء الفكر المصرى القديم ؟

— إنى أقول باستيحاء كل ما هو مصرى .

— وكيف نميز ما هو مصرى عما هو دخيل على مصر وقد دخلت مصر وتداولتها حضارات مختلفة ؟

— فى مصر أفكار ثابتة لم تتغير إلا قليلا منذ عهد الأساطير الأولى حتى اليوم . ذلك لأنها متصلة بصميم

هذه الأرض ، ومستوحاة من نفس طين هـذا الوادى الخصيب ، ومن نفس هـذا النيل الخالد . إن أفكار الإنسان وعقائده وديانـاته وخرافاته إنما تولد من مظاهر الحياة التى حوله . ما اليونان بأساطيرها وفلسفتها بغير البحر المتوسط وجزر اليونان ؟ وما أساطير النرويج بغير الغابات وبحر الشمال ؟ وما فلسفة الهند بغير نهر الجانج المقدس وأدغال الهند ! ؟ ؟ . كذلك هل يتصور تفكير مصرى بغير هذه الأرض الخصبة البطحاء التى تلد الخير فى كل عام دون أن يصيبها العقم أو يبـدو عليها الهرم ؟ شبابها خالد . هذا الشباب الذى تفهمه مصر حق الفهم . وها هى ذى آثار مصر منذ الأزل من تماثيل وصور على حيطان المعابد هل شاهدت فيها تمثالا واحداً يمثل إنساناً هرماً ؟ كل تماثيل مصر وصورها تمثل الشباب لأن كل مظاهر الحيـاة فى مصر من أرض وماء وسماء

فتية قوية رقيقة تتجدد وتبعث وتوحى بالحياة الدائمة . إن العمر لا وزن له فى مصر . آلهتهم وملوكهم وكهانهم وعبيدهم حليقون نحفاء لا يبدو عليهم عمر ولا سن ولا أثر واحد من آثار الزمن . شباب وفتوة وقوة كهذه الأرض السوداء البطحاء ، التى ما وخطها قط المشيب . إن الزمن لا وزن له عند مصر ، خوفاً منه واحتقاراً له ، أو حفيظة عليه ؛ كل ذلك جائز . إنما الواقع أن مصر كانت تؤمن إيماناً عجيباً بانتصارها على الزمن رمز « العدم » بالبعث الدائم .

فها هو ذا النيل فى انتظام يحيا ويموت مرة فى كل عام . موت وبعث . وبعث ثم موت . هكذا دواليك كساقية النيل ذات الجرات الحمراء ! من هذا النيل خرجت أساطير البعث . وفى هذه الأرض الجميلة الدائمة الخصب نشأت فكرة الخلود وقتال « العدم » تشبثا بهذه الأرض

المحبوبة التى لم تخلق الآلهة جنة سواها . فهى المرجع والمآب . يموتون عليها ويعودون إليها . موت ثم حياة ثم موت .. وهكذا إلى أبد الآبدين . لا الموت يفنى ولا الحياة تفنى . شأن هذا النيل فى حياته وموته .

تلك فكرة أساسية من أفكار مصر الثابتة . ولدت فى العهد الفرعونى الوثنى الأول ، فهل تراها تلاشت مع العهد المسيحى أو مع العهد الإسلامى ؟ كلا لم تتلاش . ولم تكن مصر تقبل اعتناق المسيحية أو الاسلام دينا لها لو لم تجد فى هذين الدينين فكرة البعث فى جوهرها ولبها . ولقد رفضت مصر دين إسرائيل لخلوه من تلك الفكرة التى لا تعيش مصر بغيرها ، البعث هو نشيد مصر الخالد .. يغنيه النيل فى كل عام .. والنبات والطيور والسماء .. والشعراء !

— إذن البعث والزمن من أفكار مصر الثابتة

التى تصلح وحياً للأدب المصرى الحديث فى رأيكم ؟

— بلا شك ، وفكرة أخرى : قوة القلب . بغير قوة القلب أى قوة الإيمان والحب ما كانت مصر تستطيع أن تنشئ هذا الفن العظيم الذى انتصرت به فعلا على الزمن ولا تزال تنتصر به عليه فى كل جيل . وقلب الفنان المصرى الذى نحت تمثال « شيخ البلد » أو تمثال « نفرتيتى » ما زال ينبض بالحياة ، ويحس حياته رواد متحف اللوفر ومتحف برلين !

— ومصر فى عهد المسيح والاسلام ؟

— مصر فى العهد المسيحى كان فيها أدب قصصى دينى صوفى رائع تلمس فيه الشخصية المصرية بأفكارها الثابتة ووسائلها الخاصة أكثر مما تلمح فيه الطابع الرومانى . ومصر الإسلامية شيدت مساجد ضخمة المظهر قوية البنيان بسيطة التفصيل ، لولا أسلوب البناء

الإسلامى لخلتها معبداً فرعونيا فى عظمة الأثر الذى تحدثه فى النفس . ذلك أن فن العمارة الإسلامى يسمو بالزخرف لا بالبناء . والفن الفرعونى المعمارى يتفوق بالبناء لا بالزخرف . لهذا السبب كان الفرق ملحوظا بين بعض مساجد مصر الشهيرة « قلاوون » و « السلطان حسن » الخ الخ ، وبين المساجد الأخرى فى غير مصر ، وكذلك كلما استوحى الفنان المصرى تاريخ قلبه وأرضه ، أنتج فنا شخصياً لا صلة له بغير هذا القلب وهذه الأرض . وقس على ذلك الشعر والقصص الذى ظهر فى مصر الاسلامية مفعما بروح هذه الأرض لا بروح البادية أو وحى أمة أخرى .

— وما قولكم فى الأسلوب الأدبى الذى يميز مصر ويطبعها بطابع خاص ؟

— الأسلوب هو مزاج الفنان وطبيعته ووسيلته

الخاصة فى إظهار مكنون فكره أو هو الشخص كما قال « بوفون » ، هذا صحيح إلى حد ما : إن الكاتب إذ يخلو إلى نفسه ، وقلبه ويترك التصنع والتقليد يستطيع أن يهتدى إلى أسلوبه . لكن لا تظن الطريق هيناً : ذلك الطريق الوعر الطويل بين الإنسان وقلبه ! إن القلب البشرى لأعمق من أن يستكشف قراره من أول نظرة ، إن قلب الإنسان بئر سحيق رسبت فيه تجاريب جنسه وأمته آلاف السنين طبقة فوق طبقة . فعليه إذن أن ينزل طبقات هذا البئر ، وهاأنذا أعود بك إلى نغمتى الأولى : حتى الاسلوب ينبغى لنا أن نبحث عنه فى أرض مصر وفنها على مدى الأزمان . ولقد سبقنا إلى ذلك البحث أمم الغرب مع الأسف . الفن الحديث كله من تصوير ونحت وعمارة انطلق يبحث عن وسائل جديدة للتعبير فوجدها فى مصر القديمة : وجد البساطة فى

التخطيط . وجد طريقة تركيب الأشكال المختلفة على قواعد هندسية « الكوبزم » ، وجد وسائل التعبير عن حقائق « الشكل » التى تخفى على العين العادية . وجد أساليب الحركة والإضاءة فى التماثيل والأعمدة مما لا نظير له فى قوة الأداء وبساطته . كل ذلك وجده الغرب وشيد على أساسه فناً جديداً . ونحن نستطيع أن نجد أكثر من ذلك لو بحثنا طويلا وتأملنا مليا . إن كنوز قلوبنا العميقة لا قاع لها . وهى أدنى إلى أيدينا من الغرباء .

— وأى أسلوب اخترتموه لأهل الكهف ؟

— لست أعرف . على النقد أن يجيب . إن المؤلف لا يقع فى الخطأ إلا عند ما يحاول الكلام فى عمله . إن الإنسان لا يستطيع أن يرى ملامحه أو يصفها إلا بالمرآة والنقد هو المرآة .

— وهل ستقدمون أهل الكهف للتمثيل ؟

— إنى لم أكتب هذه القصة للتمثيل ، ولو كان فى مقدورى معالجة الفكرة فى قصيدة أو فى صورة زيتية أو فى قطعة موسيقية لفعلت . إنما كانت وسيلتى فى إخراج الفكرة هى الحوار . ذلك القالب الذى أحبه بين قوالب الأدب . ومع ذلك أليست القصة التمثيلية أحيانا شكلا من أشكال الأدب . لها كيان مستقل متسق كالقصيدة والصورة والهيكل الهندسى : ذات جمال فى التركيب وتناسب فى الفكرة يوحيان باللذة الفنية لذاتها . إن التمثيل أحيانا إن هو إلا مجرد تفسير وليس ضرورة أو غاية أو إتماما للقصة التمثيلية . إن مآسى سوفوكل ، ودرامات كاليداسا الهندى وفاوست تأليف جوته لهى كلها أدب صراح . تدخل على النفس بمجرد قراءتها لذة فنية كاملة بغير حاجة إلى مسرح وممثلين . ولقد أعدت

النظر أخيراً فى مأساة « هيبوليت » لأيروبيد ففضلتها على « فيدر » لراسين . مع أن راسين راعى مقتضيات المسرح فى عهده وحذف « الكورس » . فوجدت أنا الجمال فى هـذا « الكورس » المحذوف ، ووددت لو أستطيع إدخال « الكورس » فى قصة أكتبها . نعم « الكورس » الآن فى أواخر القرن العشرين !! سأعيد إليه اعتباره يوماً . إنما فى لون آخر وبروح أخرى مستمدة من (كتاب الموتى) ، وأوراق البردى[1] .

(١) أرسل إلى أخيراً « أتيين دريوتون » مدير مصلحة الآثار المصرية بحثا خاصا بالمأساة فى مصر القديمة ، ضمنه ترجمة دقيقة لأجزاء من حوار أبطال قصة مقدسة وكلام « الكورس » كما وجد حديثاً فى بعض أوراق البردى . وقد أدهشنى جمال القطعة ، كما إنها قد كشفت للعالم دريوتون ولبعض زملائه من مشاهير علماء الآثار فى العالم عن منبع « المسرح الأغريقى القديم » ، إذ تبين أن هذه القطعة التمثيلية تشمل قسمين : قسم كلامى وقسم غنائى ، وأنها كانت تمثل فى المواسم الدينية ، فالغناء إذن والكورس والرقص الدينى الذى عزى إليه « نيتشه » أصل التراچيديا الأغريقية ، إنما يرجع إلى أصل أقدم منه هو « التراچيديا المصرية القديمة » .

نعم إن «الكورس» الخفى الذى أسمع همسه الغريب ، وآهاته المتقطعة ، ونوحه المخنوق ، ثم هدوءه العميق ، ثم نهوضه وصياحه وإعلانه الانتصار ! . . لهو شىء بعيد عن المسرح قريب من المعبد ، عسير على الكلام تفسيره ، مستطاع للموسيقى وحدها التعبير عنه .

الثقافة الشرقية

—

إذا كنت قد أطلت الكلام فى روح مصر وتراث مصر ، فما ذلك عن رغبة فى حبس تفكيرنا فى حدود قومية ضيقة . إنما أنا أرمى إلى غاية أبعد وأرحب . إنى أريد تدعيم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل على إنهاضها لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية . وهذا الغنى لن يأتى إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق فى أول الأمر على نفسه ، ليستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل كنوز ماضيها . حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللآلئ القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله فى معين واحد مشترك ، وقدم إلى الإنسانية باسم : « الثقافة الشرقية » . على أن الذى يدعو إلى الأسف والألم أن بعض المفكرين من

الشرقيين أنفسهم يشكون ويشككون فى حقيقة وجود « الثقافة الشرقية » أولئك هم الذين قد بهرتهم انتصارات « الثقافة الغربية » المسيطرة الآن على العالم ، فأعمتهم أشعتها الساطعة ، وأقعدتهم وأسجدتهم يسبحون بمجدها ويفركون أعينهم التى لا ترى شيئا غير هذا النور الكثير .

ذلك هو العمى والعقم والكسل . كذلك لا أقر تلك الفئة الأخرى من الشرقيين الذين يظنون أن التحمس للثقافة الشرقية معناه الجلوس متدثرين فى أطمار حضارات بالية يصعرون بخدودهم ويصيحون بألفاظ نعرة مضحكة وفخر كاذب . ذلك أيضا هو العمى ، والعقم ، والكسل . إنما إنهاض الثقافة الشرقية لا يكون إلا بنهوض الشرقيين إلى العمل فيبدأون أولاً بالجرى واللحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية . تلك الثقافة التى أضافت اليوم كثيراً على ما استطاعت أخذه من الحضارات الأولى .

فثقافة الغرب خصوصاً فى العصر الحديث لا تهمل شيئاً أنتجه العقل البشرى فى أى عصر من العصور وفى أى بقعة من البقاع . فالأوربيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية (شوبنهور ونيتشه) ، وحتى من الثقافة العربية والشعر العربى (جوته وهاينى) ولكنهم طبعوه بطابع فنهم وتفكيرهم . ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاقتناع بلون واحد أو الوقوف عند حد معلوم . فالأوروبيون دائماً يأخذون ما عند غيرهم من ثروة فكرية ليصبوه فى قالبهم .

فأوروبا إذن على ثروتها وغناها الثقافى اليوم لم يخطر ببالها قط أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى . إن الفكر البشرى ليس له حدود « دولية » إنما هنالك المزاج الخاص والطبيعة الخاصة التى تكيف تلك الثروة

المباحة التى تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة .

فالحضارة الأوروبية فى الحقيقة لم تخلق بيديها خلقاً كل هذه القوالب المعروفة فى آدابها وفنونها ولا كل هذه النظريات الشائعة فى فلسفتها وعلمها . فإن كثيراً من هذه القوالب والنظريات مأخوذ عن الشرق فى حالته الأولية . ولكن الأوروبيين زادوا عليه وأضافوا إليه وأخرجوه ممهوراً بإمضائهم ومطليا بشخصيتهم . وهذا فى الواقع عمل كل حضارة من الحضارات . ولا نستثنى من ذلك الحضارة الإسلامية نفسها فى عصورها الزاهرة فما هى إلا جماع أفكار وثقافات وحضارات أمم مختلفة صبها الإسلام فى قالبه وجعل منها لوناً خاصاً .

فالثقافة الشرقية إذن لا يمكن أن تكون اليوم بمعزل عن ثقافة أوروبا ولا أن تغمض عينيها عن هذه الثروة الهائلة ، فلنمد أيدينا إذن غير مقيدين بسلاسل

التقاليد أو العادات أو العقائد ، فنأخذ كل شئ ، ونهضم كل شيء ، ثم نعرج على روحنا القديم كل فى بلده ، فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ، إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم للفكر مفعمة متألقة لم تستخرج بعد ، فالغرب على نشاطه الفكرى ونهمه الذهنى لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرق ، إذ لا بد أن تكون معاوله قد ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعية لا تكشفها غير طبيعة الشرقى وغرائزه وتجاريب حكمته المتراكمة فى أعماق نفسه على مدى آلاف السنين .

فإذا تم لنا ذلك ، فإننا نستطيع أن نطبع كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطابعنا الخاص ؛ على نحو ما حدث عندما اختلفت طبائع الدول الشمالية فى أوروبا عن طبائع الدول الجنوبية ، فتفرعت عن الثقافة الواحدة ثقافتان هما

الثقافة اللاتينية والثقافة الأنجلو ساكسونية . ثقافتان لاتختلفان من حيث مقدار الثروة الذهنية ، وإنما تختلفان فى الطابع والمزاج والروح . فاذا كان فى مقدورنا نحن أن نضيف إلى هاتين الثقافتين العظيمتين ثقافة ثالثة لاتختلف عنهما فى مبلغ ثروتها ومادتها وإنما تخالفها فقط فى الطابع والطبيعة والروح ، ثقافة ثالثة حية نامية جميلة عليها خاتم شخصيتنا الشرقية ، يراها الغرب فكأنه يرى شيئا جديدا مستقلا ، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة ، فإننا نكون قد أدينا رسالتنا إلى هذا العالم ، وأمكننا أن نساير الفكر البشرى فى تطوره وأن نساهم بعملنا ومواهبنا فى بنائه العظيم ، وأن نظفر أخيراً باحترام هاتين الثقافتين الحيتين القائمتين ، ذلك الاحترام الذى تنظر به إحداهما إلى الأخرى . ويسترد (الشرق) عندئذ اعتباره فى نظر (الغرب) .

كتلة «الروح الشرقى»

سألنى سائل عن رأيى فى الوحدة العربية . فأحلته على آرائى السابقة . وقلت له إنى لم أغير موقفى . فأنا على الرغم من رغبتى فى تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية والشرقية . فإنى أحب أن نتذكر دائماً أننا إزاء الغرب لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغى أن نحافظ عليها . فأوروبا اليوم عند ما تبين لها خطر الحروب التى تقوض المدنيات ، قد ارتاعت وأرادت أن تحافظ على مصير ما تسميه (الروح الأوروبى) ، فأقامت من أجل ذلك المؤتمرات دعى إليها كبار مفكرى الأمم الأوروبية ليدرأوا الأخطار التى تهدد هذا الروح الأوروبى المريض . ونحن الشرقيين لنا من غير شك كذلك ما نستطيع أن

نسميه (الروح الشرقى) . إن طابعنا الفكرى وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدنا ، وإحساسنا بالجمال الذهنى ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة ، وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق الأشياء ، كل ذلك ينم عن عقلية خاصة وعبقرية مستقلة لا ينبغى أن تحلل وتتلاشى تحت طغيان موجة أقوى ! . فإذا نادينا بالوحدة العربية ، فإنما ذلك لندعم كتلة « الروح الشرقى » أمام كتلة « الروح الأوروبى » .

فى السياسة

العرائس

—

ترى ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة لو حدثتنا النفس الملعونة بالنزول من أبراج فكرنا العاجية والجلوس تحت قبة البرلمان الذهبية ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟

أما أنا فإنى كنت أقول هكذا :

سادتى الناخبين :

باسم الديمقراطية أتقدم إليكم ملتمساً عطفكم . إنى أحب الديمقراطية . ومن ذا الذى لا يحب الديمقراطية ؟ تسألوننى ما معنى هذه الكلمة التى تسمعونها هذه الأيام كثيراً ؟ تعريفها بسيط : « إن الديمقراطية هى أن رهطاً من الجياع الحفاة يمنحون مرتباً شهرياً قدره أربعون جنيهاً لرهط آخر من الثراة العتاة » ! لعل هذا المنطق يدهشكم ،

ولكن تلك هى الحقيقة ! هنالك أعجب من ذلك . فإن جوف الحقيقة مملوء دائماً بالغرائب لمن أراد الغوص عليها . إن بيننا معشر المرشحين وبينكم معشر الناخبين سوء تفاهم كبير . فإننا نطلب إليكم أن تخدمونا وأنتم تحسبون أننا وُجدنا كى نخدمكم ، أنتم تظنون البرلمان هو المكان الذى نتكلم فيه عنكم طول الوقت وعن جوعكم وفقركم وجهلكم . ونبحث تحت قبته كل يوم عن وسائل رخائكم ورقيكم ؛ ونحن نرى فى تلك القبة الذهبية شرفاً رفيعاً لمن استطاع أن يقتنص له تحتها مقعداً ، ونرى فى عضوية المجلس لقباً نتوج به أسماءنا ونزين به « بطاقاتنا » . إن عضوية البرلمان فى نظرنا ليست إلا عربة « الرولز رويس » التى نرفع بها مركزنا الاجتماعى فى أعين الشعب . ونحن إذ ننفق المال فى هذا السبيل إنما ننفقه ونحن معتقدون أننا نشترى به وظيفة أو لقباً

أو مقاماً ، فإذا ما ظفرنا بما نريد بفضل أصواتكم ، ووجدنا أيديكم العارية السمراء تحملنا إلى داخل ذلك المكان ، فإننا نتربع فيه كالعرائس فى « القترينات » ، ومهما صحتم وناديتم وصرختم بعد ذلك فإننا لا نسمع أصواتكم لأن بيننا وبينكم حاجزاً من زجاج ، ولن تستطيعوا أن تلمسونا أو تقربونا ، ولكنكم تستطيعون أن تشيروا بأصابعكم من خلف البللور ، فنحسب ذلك منكم إعجاباً ، فنزداد صلفاً وتيهاً !

أيها الناخبون ، عجباً إنى حقًّا لعلى غاية السذاجة إذ أفضى إليكم بكل هذا فى خطبتى التى على أساسها انتخب . ما العمل الآن ؟

أتنتخبوننى برغم ذلك ؟ لعل صراحتى على الأقل تشفع لى ؟ !

القاهرة فى مارس ١٩٣٨ من رسالة إلى منصور فهمى .

الشحاذون

—

إن تعاقب الوزارات السريع فى مصر ، يقذف اليوم على أفاريز الفراغ بعدد وافر من أصحاب « المعالى » لا يصنعون شيئا غير الانتظار فى « ميادين » السياسة ، ممدودى الأكف . ينتظرون ماذا هؤلاء المتعطلون ؟ ينتظرون دورهم فى العودة إلى الركوب .

نعم . إن « الحكم » أصبح الآن مثل أرجوحة « الخيول الخشبية الدائرة » التى يركبها الأطفال فى مقابل مليمات ، ولو أعطى طفل ألف مليم لأنفقها كلها فى هذه اللعبة اللذيذة ، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هـذا الحصان الخشبى المطلى بالذهب ، الملون بأزهى الألوان الخادعة ، وإن دوره ينتهى ورأسه يميل من الدوار ، فلا يفيق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على

الأرض ، فيظل واقفاً بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور بغيره ، وفى قلبه الصغير حسرة ، وفى عينيه الزائغتين علامات الصبر النافد ، إلى أن تنتهى الدورة فيخفق قلبه أملا فى أن يعود إلى الركوب ، وهكذا دواليك !

أما الفائدة من ذلك فلا شىء غير اللهو والسرور ، فهو متى امتطى صهوة الحصان الخشبى تملكه الغرور ، وظن أن هذا غاية الأمل ، وأنه قد وصل . ويلعب برأسه دوار « الأرجوحة » ، أو دوار السلطة الباطلة و « الفروسية » الكاذبة ، فيقنع بذلك ولا يفعل شيئاً غير ازدراء الواقفين فى الانتظار وهو يمر بهم مر البرق متعاليا متصايحاً صياح اللذة والظفر !

فالحياة فى مصر لهو فى لهو ، وتعطل إلى جانب تعطل ، وفراغ إلى جانب فراغ . الجميع من شبان وسياسيين ، وقادة ومقودين ، لا عمل لهم غير التطلع

إلى خيول « المناصب الحكومية » الخشبية وهى تدور ! وهذا الروح العام قد أثر فى روح الشعب كله ، فنحن لا نكاد نرى طرقات مصر خالية من أناس أشداء يتطلعون إلى موائد المقاهى ، ويمدون أيديهم يطلبون شيئا ، لقد سرت روح البطالة والسؤال فى كل طبقات الشعب ، الجاهل منها والمتعلم ، وكدنا نعتقد أن مصر قد نسيت أن فى الوجود شيئا يسمى العمل والكدح والاعتماد على النفس ، وأن مصر قد أصبحت بلداً تخفق عليه راية « التسول » العام ، وهنا الخطر الداهم ، ولا أبالغ إذا قلت إن روح « الشحاذة » موجود فى كل نفس مصرية فى الوقت الحاضر ، فالوزير الذى تسول طويلا فى انتظار منصبه لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح حتى يرى هو الآخر أفواج المنتظرين من أصحاب السؤال يمدون أيديهم ليعطيهم مما أعطاه الله ، فيثقلون كاهله

بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء عقوبة أو التماس منحة ، ويضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومى فى التخلص من هؤلاء السائلين .

وتمكنت هذه العادة المرذولة إلى حد نرى معه بعض الناس ينتظرون حتى يسألوا جيرانهم الجرائد ليقرأوها « شحاذة » ، وإلى حد أرى معه أنا المؤلف كل يوم من يسألنى نسخة من كتبى «شحاذة» ، ولا أستطيع أن أجلس فى مكان حتى أسمع من حولى أصوات الإلحاح فى سؤال شىء من الأشياء .

حقيقة إن الحياة فى مصر أصبحت لا تطاق ، فإما أن يتغير هذا الروح العام وإما أن نيأس ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام .

على أنى أعود فأقول دائما إن الذنب فى كل هذا واقع على كاهل القادة وحدهم من رجال الحكم والسياسة ،

فهم الذين علموا الشعب كله وغرسوا فيه روح البطالة والتسول والصياح ! ولو ان الشعب رأى رؤوسه ورجالاته يعملون فى سكون ، لخجل وعمل هو أيضاً بغير صخب ، ولأصبحنا حقيقة شعبا متحضراً ، يعمل ولا يتسول .

أريد أن أضع تحت أنظار وزرائنا ، مثل أبى بكر يوم ولى الخلافة ، فقد واصل عمله فى بناء الدولة الفتية حتى رضى واطمأن ، فجهز إبله ذات صباح ، وأراد أن يخرج فى تجارة له ، فاعترضه الناس دهشين :

— كيف تخرج فى تجارتك وأنت الخليفة ؟

— وكيف أعيش وتلك صناعتى ؟

نعم ، هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قط حتى ذلك الوقت ، أن سياسة الدولة عمل يرتزق منه ، إنما هو فى نظره واجب محتوم عليه كعضو من أعضاء الأمة ، أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغى أن يكفلها عمل آخر وكدح آخر !

شجرة الحكم

—

جنة الخلد بأشجارها وأطيارها وحورها وقطوفها الدانية : « صاحب الدولة » يمشى باسما مرحاً بقرب « الكوثر » متأبطاً ذراعى حوريتين جميلتين . . . » .

الحورية الأولى — (باسمة) ما رأيك فى الجنة ؟

صاحب الدولة — بديعة ، كنسائها . ولو كان بقبضتى زمام الحكم هنا لأنشأت على هذا الكوثر « كورنيش » . . .

الحورية الأولى — (باسمة) مثل كورنيش الإسكندرية !

صاحب الدولة — (بلتفت إليها فجأة) ما كنت أحسب نساء الجنة على مثل هذا الذكاء . . .

الحورية الأولى — من حسن حظنا أن يدخل

مثلك الجنة . إنى لأتساءل لو لم تجئ أنت ها هنا ، منذا كان يقدر ذكاءنا ويتذوق جمالنا ؟ أهؤلاء النساك أصحاب اللحى الكبيرة والسبح الوقورة ؟ !

صاحب الدولة — إنك ظريفة حقًّا . أين رأيتك قبل الآن ؟ ألم نتقابل فى الدنيا فى مكان ما ؟ فى سهرة مثلا . أو فى . . . .

الحورية الأولى — كلا مطلقاً . لم أرك قبل الساعة ، ما ذا كنت تصنع فى الدنيا ؟ وأين كنت ؟

صاحب الدولة — كنت فى مصر ، رئيساً للوزارة وصاحب حزب من أقوى الأحزاب ، بنيته بيدى فى أقل من شهر .

الحورية الثانية — صاحب حزب !؟ ما هو الحزب ؟ أهو « ڤيلا » أم هو « عمارة » ؟ . . .

الحورية الأولى — كلا أيتها البلهاء ، بل هو « عشة

فى رأس البر » فهى وحدها التى يمكن أن تبنى فى أقل من شهر .

صاحب الدولة — (ممتعضاً) أنتما لا تفهمان شيئاً فى السياسة . فلنتكلم فيما يفهمه النساء .

الحورية الثانية — تقول إنك كنت رئيساً للوزارة ؟ ما معنى هذا ؟

الحورية الأولى — ألا تعرفين رئيس الوزارة ؟ يا لك من حمقاء ! هو رئيس الحكومة الآمر الناهى الذى يعين ويرفت ويحيل إلى المعاش بقرار من مجلس الوزراء . ويعطى ويمنع ويتصرف فى الميزانية والمصاريف السرية . ويتزاحم حوله ذباب المحاسيب والمقربين ويجتمع ببابه فريق العساكر والمخبرين ، وتتقدم سيارته الموتوسيكلات والكونستبلات . حتى إذا ما استقال أو أقيل تخاطفته مجالس إدارات الشركات . . .

صاحب الدولة — (يغمض عينيه) آه لا تذكرينى ، لا تذكرينى !

الحورية الأولى — (تنظر إليه) ماذا دهاك ؟

صاحب الدولة — (يثوب إلى نفسه) لا شىء . (يتنهد) إن الدنيا كانت حقيقة حلوة .

الحورية الثانية — (تلتفت خلفها وتصيح) صه . انظر ، انظر ! من هذا الرجل الأنيق بين حوريتين ! ؟

صاحب الدولة — (يلتفت دهشا) ماذا أرى !؟ زميلى !

« يدنو الرجل الأنيق فما يكاد يلمح صاحب الدولة حتى يترك حوريتيه ويفتح فاه من الدهشة والعجب » .

صاحب المعالى — مستحيل ! ! دولتك فى الجنة ؟ هذا غير معقول !

صاحب الدولة — (يترك هو كذلك حوريتيه ويقبل على زميله) معاليك هنا ؟ ؟

صاحب المعالى — دولتك . . .

(يتعانقان)

صاحب الدولة — أأنت حقيقة فى الجنة ؟ !

صاحب المعالى — وأنت ؟ أخبرنى هل أنت . . أنت . . . هنا . . . ؟

صاحب الدولة — (باسما) كما ترى .

صاحب المعالى — هـذا من أعجب ما يتصـوره العقل البشرى . دولتك فى الجنة . . .

صاحب الدولة — ما وجه الغرابة ؟

صاحب المعالى — كيف أدخلوك هنا ؟ !

صاحب الدولة — أدخلونى كما أدخلوك ، وكما أدخلوا غيرى من . . . المؤمنين الصالحين . .

صاحب المعالى — المؤمنين الصالحين !

صاحب الدولة — (باسما) أتشك فى ذلك ؟

صاحب المعالى — تدخل الجنة بعد أن حصل منك فى دنياك ما حصل ؟ ؟

صاحب الدولة — ماذا حصل ؟ وإذا كان قد حصل ماحصل ، فهل منع ذلك من دخولى فى الدنيا أى مكان أحببت الدخول فيه ؟ إنى أستطيع أن أذهب إلى أى جهة تروقنى ، وأستطيع أن أدخل أى مكان يعجبنى ، وأستطيع أن أدخل فى . . عينيك .

صاحب المعالى — نعم . لباقتك ودهاؤك وانتهازك الفرص . انتظر . ألا تكون انتهزت فرصة إغفاءة من حارس الجنة وانسللت كما هى العادة . .

صاحب الدولة — أو تظن حارس الجنة يغفى ، أو يسهو أو يغفل ؟

صاحب المعالى — صحيح . إنه لا يمكن أن يكون مثل أهل مصر . إذن كيف دخلت ؟

صاحب الدولة — وأنت كيف دخلت ؟ أليس لى أنا أيضا الحق فى التساؤل والتعجب ؟

صاحب المعالى — لك الحق بلا شك . . أنا نفسى عجبت لأمر نفسى . ولكن بعد أن رأيتك هنا بعينى ، لم يعد شىء يدهشنى .

صاحب الدولة — اسمع ياباشا ! ألا يكون دخولنا الجنة حصل على طريقة دخولنا البرلمان سنة (٠٠٠) !

صاحب المعالى — كنت أصدق ذلك لو كان انتخاب أهل الجنة يحصل بواسطة رجال إدارة وعمد وخفراء كالذين كانوا فى الدنيا تحت سلطة دولتك .

صاحب الدولة — صدقت . انتخابات أهل الجنة لا بد أن تكون مضبوطة .

صاحب المعالى — مضبوطة ! ! وافرحتاه ! ! نحن لأول مرة إذن ننتخب انتخابا صحيحا فى شىء ما !

صاحب الدولة — هذا لا شك فيه .

صاحب المعالى — ولكن ما السبب فى اختيارنا ؟ هذا ما يحيرنى دائما !

صاحب الدولة — ألا يمكن أن نكون قد صنعنا بعض الحسنات دون أن نتذكر ؟

صاحب المعالى — أنا على كل حال لا أذكر لك شيئاً .

صاحب الدولة — ألم أطعم مرة فقيراً ؟ ألم أنشئ مطاعم للفقراء ؟

صاحب المعالى — إنشاء مطاعم للفقراء لم يكن الغرض منه إطعام الفقراء .

صاحب الدولة — سبحان الله فى طبعك . وأنت ما حسناتك ؟

صاحب المعالى — لقد بنيت عمارة شاهقة فى أغلى بقعة فى القاهرة .

صاحب الدولة — أتسمى هذه حسنة ؟

صاحب المعالى — لقد عملت بمبدأ « اِعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » .

صاحب الدولة — وأين الشطر الأخير من المبدأ ؟

صاحب المعالى — هل له شطر آخر ؟

صاحب الدولة — « واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

صاحب المعالى — لقد عملت ما قدرت عليه وهو خمسون فى المائة من المبدأ ... أليس فيه الكفاية ؟ ومع ذلك ، فلنكن عمليين كما كنا فى الدنيا ، العبرة بالنتيجة . وهانحن الآن فى الجنة ، فما لنا والبحث عن الأسباب !

صاحب الدولة — فى الواقع ، نحن الآن فى الجنة . فلماذا نستكثر على أنفسنا الخير ؟ أتريد الحقيقة ؟ إن الجنة هى لمن يستطيع أن يتذوق الجنة .

صاحب المعالى — يشهد الله وتشهد دولتك أنى من خير المتذوقين للنعيم فى الدنيا والآخرة .

صاحب الدولة — أخبرنى يا باشا ! إن الجنة بديعة ، أليس كذلك ؟

صاحب المعالى — طبعاً . أبدع من النار على كل حال . . .

صاحب الدولة — ألا ترى مع ذلك أنه ينقصها شجرة ذات فاكهة شهية .

صاحب المعالى — شجرة « الحُكْم » .

صاحب الدولة — كيف حزرت ؟

صاحب المعالى — ما من فاكهة ألذ منها . من ذاقها مرة فلن ينساها أبد الدهر .

صاحب الدولة — ولماذا لا توجد هذه الفاكهة هنا ؟

صاحب المعالى — لأنه لا يمكن أن يوجد هنا حاكم ومحكوم ولا ظالم ومظلوم .

صاحب الدولة — أصبت . وحتى لو وجدت هذه الشجرة هنا لتكالب عليها الناس أجمعون وخصوصاً أصحاب الدولة والمعالى السابقين من عهد نوح إلى يوم الدين .

صاحب المعالى — مؤكد . ولما تركوها غير أغصان عارية ليس فيها ثمرة واحدة .

صاحب الدولة — حقا ، إذ ليس لهذه الفاكهة شوك يصد الناس .

صاحب المعالى — الشوك هو المسؤولية . وفاكهة الحكم كما ذقناها فى مصر لم يكن لها شوك ولا نوى . بل كانت سهلة المأخذ سائغة المأكل . أما فى أوروبا حيث الرأى العام المتيقظ يحيط هذه الفاكهة بأسلاك شائكة من المسؤولية فإن كثيراً من الناس

يعافونها ويخشون أن يمدوا لها يداً .

صاحب الدولة — إن وجدت هذه الفاكهة هنا فهى ولا شك من النوع المصرى السائغ اللذيذ .

صاحب المعالى — كفى يا دولة الباشا ! إنك تسيل لعابى . فلنترك هذا الموضوع ولنقنع بما قسم لنا . فإن الجنة فيها ما يمكن أن يشغلنا . .

صاحب الدولة — (كالمخاطب لنفسه معزيا نفسه) ومع ذلك ... فإن لذة الوزارة قد قلّت ، منذ أن أدخل النظام البرلمانى . ألا تذكر ؟

صاحب المعالى — نعم ، لقد أصبح أى شخص أسهل عليه أن يكون وزيراً من أن يكون موظفاً فى الدرجة الثالثة !

صاحب الدولة — وا أسفاه ! لم تعد الكفاءة شرطاً لدخول الوزارة ؟

صاحب المعالى — ومتى كانت الكفاءة يا دولة الباشا فى مصر شرطاً لدخول الوزارة ؟

صاحب الدولة — صدقت . ولكن فى العهد القديم ، يوم كان ولى الأمر هو الذى يختار ، سواء كان هذا الولى مصريا أو أجنبيا ، فهو وإن كان يخضع هو أيضاً لاعتبارات خاصة فى الاختيار ، إلا أنه كان دائما يراعى توفر شروط الكفاءة فى الإدارة الحكومية على الأقل ، إلى جانب شروط اللباقة والكياسة والمقدرة على إقرار النظام وحفظ الأمن الخ الخ . . . ولكن انظر إلى الاختيار وقد ترك أمره الآن فى يد الشعب إنه كما قال « هتلر » فى إحدى خطبه : « قد يكون من الأيسر أن نأمل فى رؤية جمل يمر من ثقب إبرة ، على أن نأمل فى رؤية رجل عظيم يستكشف عن طريق انتخاب الجماهير » .

صاحب المعالى – هذا يادولة الباشا قول يجوز فى ألمانيا وأوربا ، أما فى مصر فمن قال إن الشعب أو الجماهير تنتخب أحداً ؟

صاحب الدولة – صدقت ، إن فى مصر الحال أيضاً أعجب من ذلك . فإن الشعب لا ينتخب ، ولا يدرى ما هو الانتخاب . ولكنه يرى معدات « الموسم » قد نصبت ، ويسمع الطبل والزمر ، ويجد أشخاصاً قد أقبلوا فى السيارات « يجمعون » أصواته بالنقود والوعود . فشأنه فى « موسم الانتخاب » كشأنه فى « موسم دودة القطن » سواء بسواء ، حيث يرى سيارات مقاولى الأنفار قد أقبلت تجمع الأنفار بالحبوب والنقود . وهكذا يعمل جماعة من المقاولين لحساب جماعة من الممولين يصبحون فى الغد هم الوزراء ! فأين إذن الكفاءة فى كل ذلك ؟ المسألة بسيطة : جمع « الأصوات » وجمع « الدودة »

إن هما إلا عملية واحدة فى أرض مصر ، عمادها : « النقود ومقاولو الأنفار » من جانب و « ساعدالحكومة » من جانب آخر . فمن آزره أحد العاملين ، فقد جمع « دود » أطيانه وجمع « أصوات » أنفاره ، وضمن « المحصولين » فى دائرته السعيدة وناحيته العامرة ! ! وهكذا ينتهى الموسم ويكشف كل فريق عن أوراقه ، فيصيح الفريق الأكثر مالا ، أو الأقوى سلطانا ، أو الأمهر دجلا صيحة الانتصار ! ويعلن أن الأمة قد أحسنت « الاختيار » !

صاحب المعالى — (يضحك) هذا صحيح . كل هذا صحيح . ولكنك نسيت يادولة الباشا أنك لجأت إلى كل هذه الوسائل وحذقتها أكثر من غيرك !

صاحب الدولة — إنى معترف بذلك . وهل كنت تريد منى أن لا أنتفع خير انتفاع بهذا الطريق الجديد السهل المختصر للوصول إلى الحكم ؟ ما دامت تلك كانت

« عُملة » العصر التى تظفر بالغنيمة ، فهل من لوم علىّ إذا حذقت التعامل بها فى ذلك السوق ؟

(تتهامس الحور الأربع ، وقد كن يسمعن مايدور بين الوزيرين صامتات دهشات وهن على مقربة منهما ...)

حورية — (تسأل جارتها) : عجباً ! كل حديثهما فى السوق والموسم والوصول إلى الحكم ولذة السلطة والانتصار على الفريق الآخر ، والظفر بالغنيمة . ماذا كان عمل هؤلاء فى الدنيا ؟ !

إحدى الحور — وزراء !

الحورية — اللهم حكمتك ومشيئتك ! ولماذا إذن أدخل الجنة مثل هؤلاء ؟!

إحدى الحور — تقديراً لبراعتهم ! فقد استطاعوا الاحتفاظ بإجلال أمتهم لهم ، بعد كل ذلك !

الحورية — أصبت ! حقا إنها لبراعة ! !

البعث

—

« حوريس — انهض ، انهض يا أوزيريس !
أنا ولدك حوريس . . .
جئت أعيد إليك الحياة ،
جئت أجمع عظامك ،
وأربط عضلاتك ،
وأصل أعضاءك . . .
أنا حوريس الذى يكوّن أباه .
حوريس يعطيك عيوناً لترى ،
وآذاناً لتسمع ، وأقداماً لتسير ،
وسواعد لتعمل . . .
ها هى ذى أعضاؤك صحيحة ،
وجسدك ينمو ،

ودماؤك تدب فى عروقك .

إن لك دائماً قلبك الحقيقى ،

قلبك الماضى !

الميت — إنى حى ، إنى حى ! . . . »

« كتاب الموتى »

وحوريس ليس إلا الشباب ، يعيد الحياة إلى ماضيه الميت . نعم هو الشباب الذى يكوّن أباه الوطن . وقد أعطاه بالفعل عيوناً يرى بها غابره العظيم فى حريته وحاضره الذليل فى قيود الغرباء ، وآذاناً يسمع بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاءوا يستغلون رقاده ويستلبون خيراته . كما أعطاه أقداماً يسير بها كى يثبت لهم أنه حى ، وسواعد يعمل بها على تشييد الصرح المهدوم . إن أعضاء الوطن صحيحة لم ينقص منها عضو . وها هو ذا جسده يتحرك وينمو ، والدم يجرى فى شرايينه .

والشباب على رأسه يصيح : « إن لك دائماً قلبك الحقيق . قلبك الماضى ! . » ، ويخيل إلىّ أنى أسمع الوطن من كل جانب يلبى النداء ويجيب الشباب الأبناء : « إنى حى ، إنى حى ! » إنى دائماً أومن بأن مصر لا يمكن أن تموت . لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف واحد : مكافحة الموت . ولقد فازت مصر ببغيتها . وكلما ظن الموت أنه انتصر . قام حوريس من أبنائها يصيح : « انهض ، انهض أيها الوطن ! . إن لك قلبك ، قلبك الحقيق دائما . . . قلبك الماضى ! » ، وإذا الموت يتراجع أمام صوت داو من أعماق الوطن :

« إنى حى ، إنى حى ! » .

فى المرأة

المرأة والمجتمع

إنه ليدهشنى حقًّا أن بعض الشباب المثقف نادى يوماً بفصل الجنسين فى الجامعة المصرية ، فى وقت أثمر فيه نظام الدراسة المتحدة وأخرج لنا فتيات حائزات على الليسانس والماجستير والدكتوراه ، هن فخر مصر وهن أنصع دليل على رقى مصر العقلى فى الوقت الحاضر . إن القول بأن المرأة للبيت لا لمزاحمة الرجل لا يحول مطلقاً دون تثقيف المرأة تثقيفاً تامًّا لتكون زينة البيت وأستاذ الطفل ومعلم الجيل . إن المرأة ليست قطعة من أثاث البيت توضع فيه بجهلها وعقلها المغلق . وهى ليست خادماً تطعم الرجل وتغسل له ملابسه ؛ ولكنها شريك محترم ينبغى أن يجد فيه الرجل متعة عقلية تحبب إليه البيت .

أما شبع رجالنا طول الأجيال الماضية جلوساً فى القهوات والحانات يأنس بعضهم ببعض ، هاربين من وحشة المنزل الذى لا يحوى غير نساء كالخادمات ؟ نعم . إن المرأة للبيت . ولكنها لكى تكون بحق ملكة البيت وقرة عينه يجب أن تتثقف أكمل ثقافة . إن من النساء فى صدر الإسلام من فقن الرجال فى فنون الشعر والأدب والعلم والجدل . وقد كان لبعضهن مجالس مشهورة يحضرها رجال الدولة ونوابغ الشعراء والأدباء والمغنين . وكان ذلك فى عصر لم تزاحم فيه المرأة الرجل فى المناصب والأعمال . كذلك فلننقل عن ثقافة المرأة الأوروبية يوم كانت — صالوناتها — تضم أعظم العباقرة دون أن تخرج المرأة وقتئذ من أجل ذلك عن وظيفتها فتزاحم الرجل فى أسباب معاشه . لا ينبغى إذن أن نخلط بين أمر تثقيف المرأة وبين أمر وظيفتها . إن المرأة زهرة

البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحه ، كلنا فى ذلك متفقون ، فلنجعلها إذن زهرة . وهل نعرف زهرة أينعت دون أن تتعرض قليلا للشمس والهواء ؟! فلنحاذر كل الحذر من حبس المرأة . فإن فى ذلك حبساً لعقلها وموتاً لشخصيتها . ولنذكر أننا إلى اليوم ندفع غالياً ثمن سجن المرأة المصرية فى الماضى . فهى كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدماها ضعفاً واحمر وجهها حياء وتلعثمت وتعثرت فى هزالها النفسى والفكرى وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والإشفاق وبدت للأعين أقرب إلى الخادمات المحجوبات منها إلى سيدة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاربها واثقة من نفسها ومن احترام الناس لها . كل هذا حدث لأن المرأة فى مصر ذبل عقلها من طول السجن ولم تعتد مواجهة المجتمع منذ الصغر . إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا

كما يقصى الحيوان الحقير جريمة فظيعة، هى القتل المعنوى بعينه لا أكثر ولا أقل . وهى الامتهان لكرامتها ولآدميتها امتهاناً يجب عليها أن تثور من أجله وأن تقيم الدنيا وتقعدها ولا تسكت عنه كما سكتت فيما مضى من أجيال . فإن المسألة مسألة حياتها أو موتها . وإن الذين يريدون قتلها باسم الدين، والدين برىء، لا يدركون أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم .

إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمة كلها ومات .

المرأة والفن

—

إنى إذ أتكلم عن الفن لا يسعنى إلا أن أعترف رغماً أن المرأة هى روح الفن . ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وجد العلم ، لكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن ، ذلك أن الإلهام الفنى هو نفسه قد خلق على صورة امرأة ، وأن لكل لون من ألوان الفن عروساً هى التى تنثر أزهاره على الناس . ما من فنان على هذه الأرض أبدع شيئاً إلا فى ظل امرأة ، وهذا القول منى غريب ، ولأبادر بتوضيح قصدى حتى لا يقال إنى رجعت إلى فضيلة الحق ، أعنى الحق الذى تراه المرأة ، كلا إنى لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد . وكل ما فى المسألة أنى دائماً أفرق بين المرأة كشىء يوحى بالجمال ، وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا .

إن عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أخشى منه . إن عداوتى ليست إلا دفاعاً عن نفسى . فلو أن المرأة تمثال من الفضة فوق مكتبى ، أو باقة من الزهر فى حجرتى ، أو أسطوانة موسيقية أنطقها وأسكتها بإرادتى ، لما كان لها عندى غير تقديس وإكبار لا يحدهما حد . ولكنها للأسف شىء يتكلم ويتحرك ، وهى أحياناً كالطفل يلقى من النافذة كل شىء ثمين ويجلس على حافتها يضحك ضحكة الانتصار . على أن الإنصاف يقتضينى أن أقول إن المرأة إذ تحطم من جانب فهى تبنى من جانب . إنها كالطبيعة فى يديها العبقريتان : عبقرية الفناء وعبقرية البناء . وإنه لمن المستحيل أن نرى فى التاريخ حضارة قامت بدونها ولا انحطت بدونها ، وأن عرشها فى مملكة الفن أظهر العروش . إننى أستطيع أن أقول على سبيل المثال إن أجمل الفن الرومانتيكى

الفرنسى إنما نبع تحت أقدام « مدام ريكاميه » وإن صالونات السيدات فى أوروبا، ومجالس الشعر والغناء فى الشرق عند العرب هى التى أخرجت أجمل ما فى الغرب والشرق من شعر وآداب وفنون . ولا أستطيع أن أضرب هنا الأمثلة ، ولكن من يفتح أى كتاب من كتب العرب القديمة يرى وصف تلك المجالس التى كانت تتصدرها نساء كالشموس ، وتضم فحول الشعراء والمغنين ويقرأ تلك الأخبار التى لا تنتهى عن ذكر الجوارى المثقفات والنساء الشريفات اللائى كن ينظمن فى السر والعلن تلك المجالس التى فيها نظم أجمل الشعر ، وتفتحت أزاهير أنبغ القرائح ، ولعلية أخت هارون الرشيد ذوق فى فنون الشعر والغناء أثر فيمن حولها من كبار الفنانين والشعراء . ولمدام دى بومبادور أبرز يد فى حركة الفكر والفن فى عصرها . ففى الغرب هى

المرأة ، وفى الشرق هى المرأة ؛ حيثما وجدت المرأة صاحبة الذوق وجد فى الحال الفن ، ونهض الفكر ، وقامت الحضارة . وإذا قيل إن مصر الحديثة لم تر بعد فنا ناهضاً ، ومن ثم لم تبد أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة . فإن السبب الوحيد أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح مازالت فى مصر نادرة الوجود ، إن اليوم الذى تعنى فيه المصرية باقتناء « لوحة زيتية » صغيرة أو « اسكيس » بسيط ينم عن ذوق تزين به جدار منزلها هو اليوم الذى يزهر فيه عندنا التصوير . واليوم الذى تهتم فيه المصرية بشراء نسخة من كل كتاب جديد للمؤلف الذى تفضله وتجلد هذه النسخة وتعرضها عرضاً جميلا ، وتتحدث عما فيها من كلام وأفكار فى مجالسها ، لهو اليوم الذى يرقى فيه عندنا الفكر والأدب ، وإن اليوم الذى توجد فيه المرأة العظيمة التى تكرس بعض

همها لإيقاظ همم الفنانين وتنشيط الحركة الفكرية لهو اليوم الذى نقترب فيه من المدنية الحقيقية ، نحن فى حاجة إلى «البيت المصرى» الذى تنمو فيه كل ملكات الطفل الجميلة . إن الطفل الأوروبى منذ اليوم الأول الذى يستقبل النور فيه لا ينام إلا على غناء جميل ، وما يمضى قليل حتى تقوده أمه فى عربة صغيرة إلى الحدائق ، فلا يقع نظره الهادئ اللاهى ، فى غير وعى ولا إدراك ، إلا على الطبيعة الجميلة ، بسمائها وجنانها ، وجداولها . وما يكاد يعى ويدرك بعض الإدراك حتى توضع فى يديه كتب لا كتابة فيها ولا كلام ، بل صور جميلة ملونة للحيوانات والطيور والمخلوقات ، وللطبيعة فى مظاهرها الوضاءة الساحرة ، فيحس جمال الرسم قبل أن يفقه معنى كلمة «الرسم» ويطرب لتناسق النغم قبل أن يعرف ما هو الغناء ، ويشعر بتناسب الأوضاع

وتجاوب الألوان فيما يحيط به من مظاهر الخليقة ، ولما يعلم الكلمات والألفاظ التى يعبر بها عن كل هذه المشاعر فهو قد أدرك وجود الجمال عن طريق الإحساس ، فلا ينقصه بعدئذ إلا إدراكه عن طريق العقل والمنطق وهو عمل المدرسة والكتب . على أن مجرد الشعور بوجود الجمال فى المخلوقات والأشياء طفرة كبرى فى التكوين الروحى للطفل . فما الجمال إلا المظهر الخارجى والثوب البادى للنواميس العليا ، ففى إدراك وجوده إدراك خفى مبهم لعظمة تلك القوانين التى تنظم الوجود . وهذا الإدراك للجمال هو كل شرف الإنسان وفضله ، وهو وحده الذى يميز الإنسان عن سائر الحيوان ، فلو شعرت الحيوانات يوماً بالجمال لما لبثت حيوانات دقيقة واحدة . إن أظهر عيب فى المصرية الآن هو افتقارها إلى الذوق ، أى الإحساس بالجمال فى الأشياء . كم من المصريات تعتبر

الأزهار فى بيتها ضرورة كضرورة الطعام والشراب ؟.

إذا وصلت المرأة المصرية إلى هذه الدرجة من الحس المرهف ، وبلغت فى دقة مشاعرها حدا لا تستطيع معه أن تستغنى فى حياتها اليومية عن الجمال فى الألوان والأصوات والأفكار ، فلقد حق لنا أن نصيح فرحين مهللين بحق : « إن مصر لا تقل عن أرقى الدول حضارة » وهذه المرأة المصرية ذات الذوق الرفيع والروح المهذب ، الدقيقة الإحساس بكل ما هو جميل ، هى نفسها التى تخلق الفنان وتوحى إليه ، لأنها لا تستطيع أن تكون بمعزل عن أولئك الذين يصنعون الجمال . إنها ستهتم بأمره وتواليه بالتشجيع ولا تتركه يفتر حتى تستثير خياله ، فالمرأة يجب أن تعلم أن « الفنان » ليس إلا « قيثارة » ، وأن أناملها الرقيقة وحدها هى التى تستطيع أن تخرج منه أجمل الأنغام . .

المرأة والفنان

الفنان الحقيقى هو ذلك الرجل العجيب الذى تزوج « الفن » ، فهل مثل هذا الإنسان يستطيع أن يتزوج أيضا « المرأة » ؟ هذا أمر اختلفت فيه الأراء . . ورأيى الشخصى أن هذا مستطاع ، لو أدركت المرأة أن حياتها مع هذا الإنسان لا ينبغى أن تشابه أى حياة أخرى . وأن حياتها ستبذل بلا ثمن لرجل بذل حياته هو أيضاً بلا ثمن ! .

نعم ، يجب أن تفهم امرأة الفنان أن كل حياتها ينبغى أن تقدم لزوجها الفنان ، وأن كل رسالتها فى الحياة أن تكفل لزوجها الحياة الهنيئة الجميلة التى فى كنفها ينتج ويخلق . زوجة الفنان هى تلك التى تعنى بزوجها ولا تطالب زوجها أن يعنى بها . هى التى

تزيل متاعب زوجها ، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها . هى التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره مطلقا بهمومها . . . هى ذلك المخلوق الذى يعيش صامتاً صابراً باسماً بجوار الفنان طول العمر ، دون أن يشعره لحظة واحدة بوقر هذا الجوار ، هى التى تقف إلى جانبه دائما دون أن يفطن إلى أنها موجودة . إن الزوجة التى تستطيع أن تعيش مع « الفنان » هى بالاختصار تلك التى لها رسالة وعقيدة ، هى التى تستحق بصبرها وتضحيتها أن يقرن التاريخ اسمها باسمه . هى التى تضع فى قلبها هذه الكلمة : « إنما يعيش الفنان من أجل الفن وتعيش هى من أجل الفنان » .

المرأة وأشواكها

كثيراً ما يخلط الناس فى أمر نظرتى وعلاقتى بالمرأة ، وإنهم ليتهمونني أحيانا بالتناقض ، إذ يرون أنى أحمل عليها مرة ، وأشيد بذكرها أخرى . والحقيقة أنى فى كلا الحالين أعتقد ما أقول .

فالمرأة من غير شك هى الزهرة المشرقة فى بستان وجودنا الآدمى ، زهرة لها نضارتها وعبيرها ، لكن لها أيضاً أشواكها .

جمال المرأة وفتنتها : تلك هى فى نظرى أشواكها الحقيقية التى تضع فيها كل سموم سلطانها وسطوتها . فالمرأة إنما تشهر علينا نحن الرجال هذا السلاح ، وتقف به فى وجه أعمالنا ، آمرة فينا وناهية ، صائحة بنا أحيانا أن نقف فى طريقنا كما تقف القافلة تحت تهديد قطاع

الطريق ، لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت ، وقلب ، ومال ، وجاه ، وشهرة . إنها لتجردنا من كل شيء ، وتتركنا عراة تحت سلاحها المسلط المخيف !

لعلها تتهمنى بالمبالغة ، ولكن هل تستطيع امرأة أن تقول لى إن هنالك امرأة فى الوجود تعيش لغرض آخر غير سلب الرجل ! . إنك إذا فتحت رأس امرأة لما وجدت فيه غير هذه الغاية : السطو على رجل !

إن الرجل قد يعيش لعمله ، أو لفكرته ، ولكن فكرة المرأة وعملها هو البحث عن الرجل الذى تسلبه لحظاته وكل حياته . فإذا نظرت المرأة إلى رجل مشهور فإنما تنظر إليه بفكرة واحدة : أن هذه الشهرة لها ، وإذا كان غنياً فالمال لها ، وإذا كان لبقاً ظريفاً فكل ذلك لسرورها ولخدمتها !

لست أتكلم بالطبع هنا عن المرأة المجردة من السلاح ،

ولكنى أتكلم عن المرأة ذات الأشواك ، المرأة المدججة «بسلاح» الفتنة والجمال . هاهو ذا تاريخ البشرية أمامنا . أين هى المرأة الجميلة التى لم تستخدم جمالها فى إخضاع الرجل ؟ ؟ كم امرأة فى التاريخ جعلت جمالها فى خدمة «غاية أسمى» من إخضاع الرجل ؟ إن المرأة ليست لها الشجاعة أن تنكس سلاح جمالها فى وجه الرجل . إن المرأة مخلوق «غير سلمى» ، متى وجد فى يدها سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب . إن المرأة الجميلة هى عدو الرجل المفكر .

فهرست

صفحة

في الدين : ٧

منطقة الإيمان ٩

الدفاع عن الإسلام ١٧

نجم أحمد ٣٦

سر العظمة ٤٥

في الأدب والفن والثقافة : ٥٣

الخلق ٥٥

النقد ٧٧

بين الخالق والناقد ١٠٢

منابع الفكر المصرى ١٠٦

الثقافة الشرقية ١١٩

كتلة الروح الشرقى ١٢٥

في السياسة : ١٢٧

العرائس ١٢٩

صفحة

الشحاذون ١٣٢
شجرة الحكم ١٣٧
البعث ١٥٣
فى المرأة : ١٥٧
المرأة والمجتمع ١٥٩
المرأة والفن ١٦٣
المرأة والفنان ١٧٠
المرأة وأشواكها ١٧٢

C

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY